صوت الراوي

حين النظر إلى خريطة الإبداع القصصي في الجزيرة العربية، يلحظ المرء وجود حجم كبير من إنتاج القصة القصيرة، يتمثل في مئات المجموعات القصصية، التي صدرت على مدى أكثر من نصف قرن، وتفاوتت في أعدادها من منطقة جغرافية إلى أخرى، ومن فترة زمنية إلى أخرى.

وعند النظر إلى الإنتاج النقدي، المتصل بالقصة القصيرة، يفاجأ المرء جداً، أنه لا يتناسب مع حجم الإبداع. وحين البحث عن الأسباب، لا يجد المرء صعوبة في اكتشاف أن القصة القصيرة، ليست من الفنون الأدبية، التي تحظى بالدعم الكبير من الجهات الثقافية في أوطان الجزيرة العربية.

وإذا كان يوجد عشرات النقاد الذين يتابعون مسيرة القصة القصيرة في هذه المنطقة من عالمنا العربي، فإنه من غير المتوقع أن تكون المتابعة، منتجة لإبداع نقدي يقترب من حجم الإنتاج القصصي، دون دعم من المؤسسات الثقافية. وهذا الدعم والاهتمام يمكن أن يتبلور بصيغ متعددة. يأتي في مقدمتها عقد الندوات، والمؤتمرات المتخصصة،

لدراسة واقع القصة القصيرة في المنطقة. لا تتذكر **الراوي** أن لقاءً واحداً قد عقد عبر العقود الماضية، تمركز حول القصة القصيرة في الجزيرة العربية. غير أن **الراوي** تتذكر بعض اللقاءات، التي عقدت لمعالجة القصة القصيرة في بلد واحد، أو عدد من بلدان الجزيرة العربية، لكنها لا تتسم بطابع الشمولية. هذه اللقاءات أنتجت جهوداً نقدية، تم طباعتها في إصدارات خاصة، وأصبحت مرجعاً أساساً لدارسي القصة القصيرة في المنطقة. وهذا يؤكد أن من وسائل تفعيل النقد، الاهتمام بعقد لقاءات أكاديمية تجعل من القصة القصيرة في الجزيرة العربية محوراً لها، لمزيد من التفعيل النقدي، خصوصاً حين ندرك حجم الإبداع، الذي بدأ يتزايد بشكل ملحوظ خلال السنوات الأخيرة.

الراوي بصفتها صوت القصة القصيرة في الجزيرة العربية، ولعلها تنفرد في ذلك بين مطبوعات المنطقة، ترفع صوتها، آملة من الجهات الثقافية في دول المنطقة، تبني لقاء دوري دائم، ثابت الزمن، يدعى إليه المبدعون والنقاد، لتسليط الضوء على القصة القصيرة في الجزيرة العربية، ومعالجة قضاياها النقدية، بصفتها معبرة عن واقع محلي، وعلى اعتبار أنها جزء من الإبداع العربي، والإنساني.

تأمل **الراوي** أن تجد هذه الدعوة قبولاً واستجابة من الجهات المعنية، وتجزم أن التاريخ الأدبي للمنطقة سيسجل في صفحاته، مثل هذه الجهود حين تبنيها.

أمل يرفع، ودعوات بتحقيق هذا الطموح، والله الموفق.

رئيس التحرير

راوي العدد :

محمد علوان

سيرة موجزة

محمد علي علوان.

من مواليد السعودية 1950.

بكالوريوس أدب عربي من كلية الآداب بجامعة الملك سعود.

أصدر ثلاث مجموعات قصصية:

- الخبز والصمت (1977)
- الحكاية.. تبدأ هكذا (1983)
- دامسة (1998)
- لذاكرة الوطن (مقالات) (1994)
- أشرف في فترات مختلفة على الصفحات الثقافية بمجلة اليمامة وملحق أدب وثقافة بجريدة الرياض.
- يشغل حالياً منصب مدير عام المطبوعات المكلف بوزارة الإعلام، الرياض.

تجربتي الكتابية

هو المكان الذي يمنح القلب هذا الوجدان وهذا الانتماء، هو المكان الذي يمتد ويتسع داخل الذاكرة عند محاولة استرجاع تلك الصورة من الماضي في محاولة لالتقاط هذه الصورة التي غابت داخل ذاكرته، ذلك الطفل الذي لا يملك معرفة يقينية بعالم المكان، لأن معنى ذلك العقوبة المترصدة لدهشة الاكتشاف بمفردها فكيف بالاكتشاف بنفسه.

هو عالم المكان الذي يدخل البهجة حيث يخطو صاحبنا ليرى الجبال التي ما برح يحلم دائماً بالوصول إلى قممها العالية حيث يشعر حينئذ بالانعتاق والوصول، إلا أن المجهول الذي يحيط بهذه الجبال يمثل له الوحشة والرهبة والخوف داخل القلب.

يخطو صاحبنا ليرى الوديان السحيقة حيث

يتابع الشمس في رحلتها نحو الغروب، ها هو يتلذذ بمرأى الضباب ويستعيد دائماً تلك الأهزوجة التي طالما رددها مع رفقة أغنية تصف هذا الضباب القادم من تهامة باحثاً عن عروس سروية طويلة القامة، يبحث عن هذه العروس ويتجول بين القرى مرتدياً عمته الناصعة البياض ها هو صاحبنا يستعيد صورة بلدته الصغيرة «أبها» بأحيائها المتناثرة، وذلك الوادي الذي كان يراه في ذلك الوقت أكبر وأعظم الأودية وخصوصاً عندما يمتلئ بالسيول الجارفة المندفعة من رؤوس الجبال. ما أكثر ما يهطل المطر، حتى حفر في ذاكرته سماع صوت الرعد ورؤيته للبرق تلك الرائحة العظيمة للأرض بعد المطر، والغناء عن المطر لايزال يصدر من رفقته وهم يغنون في دهشة طفولية عن هطول المطر والشمس تخرج من بين السحب.

ها هو يتذكر سوق الثلاثاء، وهو السوق الأسبوعي لمدينة «أبها» منذ زمن طويل، وكيف كان يلعب هو ورفقته بين تلك الدكاكين المؤقتة التي ينصبها التجار في وسط السوق عصر الاثنين من كل

أسبوع، ها هو منظر قوافل الجمال التي تحمل البن والطب وأكياس الفحم... قوافل الحمير التي تحمل الفاكهة من القرى المجاورة، النساء الجميلات اللاتي يهبطن من رؤوس الجبال ليبعن الفاكهة والريحان والكادي.

كان يوم الثلاثاء هو العيد الأسبوعي لبلدة صغيرة تقبع هناك في الجنوب أصابت من الحضارة حظاً بالقياس إلى ما جاورها من مناطق، فقد كانت قبل ميلاد المملكة حاضرة للأتراك لفترة زمنية طويلة، حيث أخذت منهم الشيء الكثير من صفات المأكل والمشرب.

تبدأ القصة لديه منذ أن بدأ يرقب الأشياء ويحاول الربط بينها، يسمع كثيراً ويتحدث قليلاً، أتيح له السفر المبكر من بين إخوته ورفقته فعرف الشام، وعرف جدة ثم ذهب وراء البحر فعرف مصر ولبنان برفقة والده.

كان الكتاب والصحيفة والمجلة لا تبرح المنزل، حيث يذهب كل أسبوع ليأتي بالصحف والمجلات

المصرية من وكيلها في «أبها» في منزل صغير في أحد الأحياء، ذلك المنزل المشبع برائحة حبر المجلات الذي طبع في ذاكرته حتى هذا اليوم.

حين يهبط الليل يسمع القصص الجميلة من جدته التي تقرأ بشكل جيد وتعرف بعض الكلمات والعبارات التركية وفي المقابل يسمع القصص الموحشة من خالته حتى لم يكن ليجرؤ على إغلاق النافذة، خوفاً من الأشباح التي كانت تمثل أبطال القصص التي تسردها هذه الخالة، وهم مجموعة من الأشباح تحمل أسماء ترتبط بالحيوانات مثل الجمال والماعز، ومخلوقات تصدر أصواتاً غريبة وعجيبة، هو بطبيعة الحال لم يسمعها في حياته، لكن قدرة السرد التي تتمتع بها خالته والوصف المدهش للحيوانات بشكلها الخرافي وحركتها غير المألوفة بالجن خلقت لديه معرفة شبه يقينية بالصوت والشكل والحركة.

تلك الدكاكين المسقوفة التي تحيط بالسوق الكبير بشكل مستطيل، وذلك العود في وسط السوق حيث يرتفع فوقه الأتريك الذي لا يضيء إلا بقعة

صغيرة، وفي يوم الثلاثاء كانت ترتفع بدلاً منه يد مقطوعة لسارق نفذ فيه الحكم، العم الذي يبيع الهيل والخناجر، يتعامل مع البدو الوافدين بالسمن الصافي والعسل النقي يسمع حكاياتهم وخصوماتهم، قصص الثأر بينهم، قصص العشق ووصف النساء، كانت هذه الصور جميعها تخلق لديه معنى للحكاية. وها هو كل صيف ينتقل لدى خؤولته ليرى الجد نائباً للقبيلة ويراقب في رهبة كيف تدار الأحاديث، كيف يصمتون عندما يتحدث النائب، لأن له القول الفصل في كل الأمور.

يهبط إلى «سوق الاثنين» ليرى البدويات الجميلات يبعن السمن، ها هو يرقب أحاديث الغزل بين الفتية كبار السن من جانب وبين بائعات الفاكهة. ها هم الشباب يتفاخرون بشعورهم الطويلة فوق أكتافهم كرمز للرجولة والشجاعة.

هو المكان سيد البداية، حيث تبدأ الأشياء في نموها الطبيعي، تتشابه من قرية إلى أخرى، هذا في وصفها العام، إلا أن لكل قرية طعمها الخاص

ومذاقها الذي لا يخطئه القلب، في لبس المرأة المتزوجة، وتلك التي لاتزال تنتظر فارس الأحلام في الحقول بمحصولها عبر الفصول، في أناشيد الرعاة وراء الأغنام، في أغاني المزارعين وسط الحقول، أصوات العمال عند بناء البيوت أو زمن الحصاد ، في حفلات الزفاف أو الختان. هو المكان الملتصق بالناس بنبضهم اليومي ومعاناتهم، هو المكان يهب لمن يملك القدرة على ترجمة كل ذلك إلى عمل فني نابع من بين

البناء في الزراعة بكافة مراحلها في حفلات الختان والعرس.

القرية كانت تنمو بشكل طبيعي وهي بعد ذلك بدأت تفقد رويداً رويداً الوجه الإنساني الأليف حيث ظهرت المصالح الفردية وغاب معنى الجماعة. القرية عندي بما تحمله من أشكال متعددة للموروث الشعبي، هي ما استطعت التقاطه في معنى الصراع الناشئ من المطر والجفاف، العشق والخيانة، الصدق والكذب. هل لتلك الأشجار الكثيفة والجبال المتلاصقة صداها في النفوس؟ حيث كل شيء جاد وصارم وحاد ؟ أعتقد ذلك، ولذا كانت المنطقة تتميز بشكل أو بآخر بسرعة الانفعال.

الأسواق الأسبوعية التي جاء ذكرها ، تمثل نوعاً من التلاحم بين القرى، هي المجال للتعارف والحصول على المعلومات، معرفة أسعار القمح والعسل والسمن، معرفة أماكن سقوط المطر، وللمطر في مناطق الجنوب معنى بين الناس يكاد يصل إلى مرتبة من مراتب مزارعهم ومواشيهم مرتبطة بهذا المطر.

القصة تمثل لي قيداً أقل من الشعر الذي حاولت التعبير بواسطته ثم وجدت أنه لم يستطع التنفيس بما فيه الكفاية، فكانت القصة. وعندي أن الجنوب ثري بقصصه وأحداثه واختلاف تضاريسه الجغرافية التي يتبعها، بطبيعة الحال، اختلاف التضاريس النفسية، إن صح التعبير.

إن ما قدمته للساحة الأدبية في المملكة لا يمثل إلا تجربة ضمن تجارب لمجموعة من الكتاب يمثلون هذا البلد أروع تمثيل وأصدقه وربما أن لديهم من عمق التجربة والمعاناة بحسب بيئة كل واحد منهم ما يفوق تجربتي وهم ولله الحمد كثر. لقد قدموا ولازالوا يمنحون الساحة الأدبية عطاء متميزاً، آمل أن يحظى بالتقدير ضمن القصة العربية بشكل عام.

محمد علوان

شهادات
(1)

عجبت حين رأيت أغلب اعتراضاتي عن القصة الحديثة قد خفت وتحققت معظم آمالي لها في مجموعة «الخبز والصمت» فهي عندي خير مثل ننشره لمحاولاتها الوصول إلى النضج: حجم صغير، بل في أغلبها قصير جداً، تركيز شديد، لم يمنعها تتابع التقطع بسبب الجمل القصيرة المستقلة من تملك قدر لا بأس به من السيولة والتدفق. لحنها شمولي، بعدها عن الافتعال فهي صادقة كل الصدق، نبعت كما قلت من هموم تنهش المؤلف، الألفاظ غير مستمدة من المعاجم بل تحمل بصمات المؤلف وشحنة تعجب كيف احتواها قالبها. تجاورت كلمات لم تتجاور من قبل، وتجمعت في اليد في نسق يبهرك أشتات لم تتجمع من سابق. ملك المؤلف أسلوبه

الذاتي الذي يدل عليه ويميزه عن غيره، وهذا هو أعز مطامح الفنان، ليس هدفها التسلية بل تناول قضايا يبدو أنها تلح على المؤلف إلحاحاً شديداً، سنراها فيما بعد - النظرة في الأعم إلى الداخل [اللون والصوت والحركة في الخارج ليست جميعها سوى صدى حقيقي لما نحس هنا في أعماقنا رقصة الخبر والصمت]. اهتمامها بالمشاعر إذن مثل أحداث العالم الخارجي. إنها لا تريد إخبارك وإعلامك بل رج شعورك إلى حد الإيلام. الجموع لديها تتناوب والفرد دور البطل، وأغلب الأفراد ليس لهم أسماء.

يصل إلينا بوضوح من تحت السطور صوت إنسان يحدثنا، ندرك أنه يعيش في بيئة صحراوية، برمالها وجبالها وسيولها ويعبرها. ولأن النظرة هي إلى الداخل فإن نصيب هذه البيئة من التعريف قليل جداً، وكنت أتمنى للبيئة الجغرافية نصيباً أكبر من اهتمام المؤلف. كانت أمامه فرصة ضيعها للالتفات إلى عبقرية المكان، إن بروز البيئات المحلية المتباينة هو الذي يبني للقصة العربية رقعتها الفسيحة. وندرك أن هذا الإنسان الذي يحدثنا - وليس هو

المؤلف بل وليد خياله - صاحب نظرة فاحصة تزهو بقدرتها على التغلغل في النفوس يكشف أسرارها، في أغلب الأمر يكشف عاهاتها، إنه [يكشف الإنسان الخائف، الإنسان البخيل، الإنسان الأناني، يكشفهم جميعاً، هناك في داخله [قصة تموت وحدك] إنه منحبس داخل نفسه، في مواجهة ضغوط المجتمع وزيفه ونفاقه وتعاسته لا يجد هذا الإنسان مكاناً يتراجع إليه سوى دخيلة نفسه وهو في انحباسه داخل نفسه لائذ بالصمت [ليس لك سوى الصمت وهو في كل الحالات التراجع الوحيد والهزيمة الفريدة التي لا يدركها الجميع ولكنها لا تحسب هزيمة ولا تراجع.. الصمت.. الصمت.. ربما يكون في قليل من الأحوال منطلقاً لصرخة مدوية [قصة الخبز والصمت] وهو يتعذب لهذا الانحباس فنحن لا نفقد الأمل في خلاصه. انحصر دوره في مراقبة المجتمع والأفراد بعين صقر الصحراء، ثم - يالمأساته؟ - لا يتمثل له الاتصال وممارسة الحرية إلا بارتكاب الخطيئة [نسجن أنفسنا ونتعذب من هذا السجن وله، ثم نرتكب الخطايا ونظنها شاطئاً آمناً، نرتكب الخطايا ونبررها

بأننا نعيش بألم. لم نكن نعرف أننا نمارس الهرب ونتوقف لنعاود ذلك من جديد [قصة تموت وحدك] في خارج أسوار الخطيئة كل محاولة للاتصال باءت بالفشل. الجسر - وهو رمز الاتصال - تحطم [قصة الجسر] والمرآة التي تعكس العالم تتحطم وتتهشم [قصة المرآة المخدوشة].

●●●

عرف هذا الإنسان المتوهم - ولا عجب - كل الويلات التي يجرها عليها انحباسه داخل ذاته، اضطراب نفسي وتمزق وبأس وتشاؤم شديد، بل إنه يعاني من مركب نقص يتبادل فيه الانعكاس بين البدن والروح ويتمثل دائماً في اليد فهي أداة تنفيذ الإرادة نراها مرة مصابة بمرض يشبه البرص فهي بيضاء [قصة لا يتفقون أبداً] وأحياناً مشوهة من آثار جروح قديمة [قصة الخبز والصمت] وهذا الشعور بمركب النقص هو سر فشله المزمن في الاتصال بالنساء. لا يثق بنفسه ويلجأ إلى السحر. ها هو ذا يريد أن يخطف قبلة من فم البنت إذا دق بابها فلا

تـخرج لـه إلا أمها وشتـان بين عـجوز دردبيس وصبية [قصـة خضراء] ها هـو ذا في السـوق يغـازل بـائـعة فيـكون جزاؤه علـقة ساخنة [قصة المرآة المخدوشة] ما هي بضاعة هذه البائعة؟.. من دلالات نضوج الفن في هذه القـصص اختيـار التـفاحة لتـتجر بـها البـائعـة. والـتـفـاحـة رمز لحـواء والخروج مـن الجـنـة. حـقـاً لـقـد أعجبني لطف هذا الرمز.

إن القضية الرئيسية التي تعالجها هذه القصص هي قضية مجتمع يقدم لنا هذا الإنسان الذي نسمع صوته من وراء السطور في صورة مجتمع صحراوي، معزول، وسيلة الاتصال سيارة تأتي مرة كل أسبوع، يعيش في كنف جبل تهبط منه السيول فتغرق الأرض، تسود فيه الخرافات حتى الشاب المثقف يبيع كتبه ليشتري تميمة سحرية تعينه على لقاء حبيبته. مجتمع مستسلم راض بحياته رغم شظفها. الحياة فقر وعدم ولكنها لذيذة.

ثم يـأتي يوم تهـب فيـه عـليـه رياح مـن خارج حدوده، من بـلاد أجنبـيـة تحـمـل إليـه أفـكـاراً جديدة

عليه. يأتي بها مرة رجل غريب يقدم إلى السوق، يوصف بأنه مسحور وأن عينيه زرقاوان. ومرة فنان من أبناء المجتمع يعود من رحلته إلى البلاد الأجنبية ويعلق لوحاته على جدران متربة. وإذا بهذا المجتمع يضطر إلى مواجهة أسئلة عديدة. أولاً: هل هو متهم بالجمود؟ [معلبة في قريتي العواطف والأحاديث والغناء والسوالف. ثانياً: ما مبلغ ثقة هذا المجتمع بهذا الرجل الغريب أو بالشاب والفنان، أليس من الخطر والحماقة أن يعجب المجتمع بهذا الرجل الغريب لا لشيء إلا لأنه غريب، إنه يريد أن يفرض عليهم إرادته ويجبرهم على الطاعة، إذن فهو قادم لاستعباد المجتمع طالما أن هذا المجتمع أقل منه شأناً ومعرفة.

وهل يفهم الرجل الغريب هذا المجتمع حق الفهم؟ ها هو ذا ينذر بنكبة: أن تندلق السيول وتغرق القرية فإذا بالسيل ينجلي عن طمي يحمل الخصب. كلام كثير - ولا فعل - يسمعه المجتمع من الرجل الغريب ومن الفنان، أشبه بالقصائد العصماء. فيصرخ في وجه الفنان: الفن ترف، علمنا كيف نهزم القحط ونهزم المرض.

والسؤال الأخير: هل الحياة مع الجديد الذي يبشرون به هي اليوم أفضل. أم حياة الأمس هي الأفضل. والمجتمع لايزال في حيرة، يقول بمنتهى الصدق إن حياة الأمس كانت أحياناً أحسن وأحياناً أسوأ. إذن لابد من استبقاء الحسن ورفض السيئ الوافد من الخارج، ألا ترى أن أول تغيير طرأ عليهم لم يمس إلا الجلد، ولم ينفذ إلى الأعماق، الناس اليوم أكثر أناقة. ولكن ما هو الثمن الذي دفعوه من أجل هذه الأناقة. إنهم أصبحوا أقل شجاعة عنهم بالأمس، الداء كله في نظر هذا الإنسان الذي يحدثنا خلال السطور أن المجتمع مستورد. دوره الوحيد مقصور على الاستيراد. وهذا عمل سلبي، لابد له أن يتحول إلى عمل إيجابي، أن يعمل علي الاتصال بمنابع التيارات الوافدة ليعرف أولاً حقيقتها حال فعاليتها، أن يخالطها ليقوى على امتلاكها لا على استيرادها فحسب. ليس في موقف الرجل الغريب القادم للسوق مأساة، لأنه غريب أزرق العينين، أما المأساة كل المأساة فهي مأساة ابن المجتمع، الشاب الفنان الذي يؤمن أن الفن هو أقوى سلاح لنقل هذا المجتمع من

الجمود إلى الحركة، من الغيبوبة إلى الوعي، فلا يكون نصيبه إلا الصد والإعراض ويصاب بخيبة أمل تكاد تكون قاتلة.

ونرى هذا الفنان في صورة أخرى وهو يؤمن أن لا فن بلا حرية، وأن أبسط مظهر لهذه الحرية يتمنى أن يجده في مجتمعه هو قدرة الإنسان أن يقول ولو مرة واحدة: لا! حتى في وجه أبيه. بجانبه أم لم تستطع طول حياتها أن تقول لا.

ألسنا نجد في هذا المجتمع الصحراوي كما صورته هذه المجموعة خلاصة كل المشكلات التي تعاني منها البلاد التي يتجاذبها القديم والجديد. الأصالة والحداثة.

●●●

هالني مقدار القتامة التي صبتها هذه المجموعة في قلبي. يكفي أن تقرأ مطلع قصة [يحكى أن] حتى تصدقني، بدلاً من الأمل الذي يرمز له بازدهار زهرة مرة كل عام.. إذ بنا لا نرى إلا زهرة تذبل مرة كل عام، ما كل هذا اليأس.

ومع هذا قبلت هذا كله، ورأيت هذا الصوت الذي يحدثنا عبر السطور يؤمن أن الإنسان لن يقدر النور حق قدره ويعشقه إلا إذا دفعته يد ليسقط في أعمق الآبار المظلمة، إلا إذا قيدته بالسلاسل التي تدمي معصميه ليدرك بعد حلها معنى الحرية. ليس التبشير مقصوراً على إعلاء شأن الفضائل بل على ذم الرذائل وإبرازها في أشنع صورة. إن نعيم الجنة يتراءى لنا في أتم بهائه إذا قرأنا وصف الجحيم وهول عذابه، ولا عجب فإن هذا الصوت يأتي من بلاد تؤمن بأن آخر الدواء هو الكي.

يحيى حقي

(2)

تمثل مجموعة (دامسة 1998) القصصية تطوراً نوعياً في مسار القاص محمد علوان الذي أصدر من قبل مجموعتيه (الخبز والصمت 1977) و(الحكاية تبدأ هكذا 1983). فالقاص يستخدم آليات السرد بوعي متقدم من خلال بحثه عن صيغ للتعبير عن الإنسان في خصوصيته الاجتماعية والتاريخية. ففي معظم القصص وخاصة (دامسة، امغريبة، العسل الأسود، العرس) يوظف القاص المكان بوصفه تقنية سردية وبوصفه خلفية بانورامية لتكون الشخصية في مضمونها الاجتماعي والتاريخي حاضرة الفعل والدلالة. ولذلك فإن المكان والإنسان في مجموعة (دامسة) يأخذ بعداً فلسفياً يستدعي خصوصية معينة للسرد عند محمد علوان. فالشخصية تتشكل في الغالب وفقاً لقانون المكان، وكان المكان في هذا

السياق ذا سلطة وجودية تلون وجود الإنسان بمشاعر متباينة من القلق والتطلع، ومن الخوف والأمل في الخلاص. إن هيمنة المكان تمتد لتشمل سيطرته على الأفعال الطقسية كالختان في قصة (العرس). إن السؤال الآن هو، هل كان بإمكان القصة أن تجرد حضور المكان وتحيل فضاء النص إلى إنساني النزعة؟ هذا التساؤل ليس له إجابة محددة، بل هو تساؤل في أهمية المكان بوصفه استراتيجية مهمة في بناء قصص هذه المجموعة. لا شك أن توظيف المكان هنا جاء موفقاً إذا نظرنا إليه بوصفه بعداً دلالياً تاريخياً جغرافياً يجسد جلال المكان عندما ينهض بوظيفة سردية معينة. فمعظم قصص المجموعة تستمد حضورها القوي، ليس من بنيتها الحدثية أو من جماليات اللغة، بل من محورية المكان بوصفه استراتيجية سردية تستدعي الحدث في بعد طقسي يعكس هوية المكان.

وحضور المكان على هذا النحو يتجلى في اللغة المحكية التي تتسلل في ثنايا بنية السرد، كما يتجلى في تسمية الأمكنة، ويتجلى أيضاً في

استدعاء دلالة تشي بحضور المكان. هذه بعض التقنيات التي استخدمها القاص للدلالة على المكان. ولذلك فإن تفريغ الحدث من سياقه المكاني يفقد كثيراً من دلالته. فالمكان بهذا الحضور الطاغي يحتل وظيفة بنائية ودلالة موضوعية تضفي على الحدث أو الحالة حالات استحضار مهمة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن تخلق الشخوص داخل البنية السردية، فإن المكان يحضر ببعديه الاجتماعي والتاريخي بوصفه جزءاً من التركيبية التي تعين على تفهم نبرة الجدل الحادة بين الشخوص وعلى وجه الخصوص بين الرجل والمرأة.

ففي قصة (امغريبة) يتحد المكان مع الموقف، بل إن الموقف جزء من حضور المكان. فالقصة في نسقها السردي تحاول أن تسجل رؤية صبي لعالمه المتمثل في السوق الشعبي (الاثنين) ذي الدلالة الاحتفالية الطقسية. ففي السوق يتم اللقاء بين الجماعات، كما يتم تداول العديد من السلع التي تشي بخصوصية المكان كالسمن والعسل. لكن

التسـاؤل الذي حاولت القصة أن تثيره يكمن في مفارقة علاقة المرأة بالمكان. وهي علاقة تبدو مقيدة بسلطة الرجل. إن حضور (امغريبة) وهو تعبير يشي بحضور المكان من خلال استنطاق لهجة جنوبية معينة مما تغدو معه الشخصية مؤطرة بحدود المكان. وعلى العكس من دامسة/ الشخصية، فإن امغريبة/ الشخصية تحضر في جو المكان لكن حضورها سرعان ما يقيد لأسباب أخلاقية بحتة تفرضها بطريركية الرجل.

«قال النائب: يا بنت علي، حافظي عليها إلى أن ينتهي السوق، أتدرين ماذا فعلت، لقد أربكت السوق كله رجالاً ونساء، حتى (العُقّال)، أخبريها ألا تعود إلى السوق مرة أخرى، يكفينا مشاكلنا».

فالمكان يسمح بالحضور للرجل والمرأة، لكنه حضور مقيد بسلطة النائب الذي يرى في ظهور المرأة الجميلة ·امغريبة) مدعاة للفتنة. ولذلك فإن الحضور يصبح انتقائياً وهامشياً مجرداً من المصداقية. فالقصة تؤسس من خلال الرموز الدلالية في بنية

المكان إشكالية اجتماعية تجسد أبوية الرجل وسيادته وانتقائيته في التعامل مع المرأة. فالنائب بوصفه سلطة يجسد خوفه من فتنة المرأة بحجبها. وإذا كان المكان الذي تصوره القصة يسمح بحضور المرأة، فإنه حضور مقيد بشرط الرجل الذي يرى حضور (شخصية) المرأة الاجتماعية أو الذاتية حضوراً يتجاوز المباح كما يفهمه الرجل. ولذلك يأتي النفي أو الحجب ليؤكد أهمية دلالة اسم القصة وبالتالي الشخصية (امغريبة)، وهي غربة لم تبحث عنها المرأة، بل فرضت عليها بفعل الرجل الذي حد من حضورها. فتحولت من معلومة إلى مجهولة، ومن معروفة إلى غريبة. لقد نفيت وحجبت كونها امرأة تود أن تمارس حضورها في سياق يحكمه قانون المكان.

أما قصة (دامسة) فتصور المرأة مستلبة تبحث عن الرجل الذي ينقذها. وعندما تدخل في حوار خفيض مع أول رجل تنعته بأنه «خبل جميل». وتعكس هذه المفارقة خشية المرأة من مغامرة الرجل في سياق يقلل من فرص اللقاء. غير أن الرجل في

القصة يسقط في خيبته وتردده. فرغم أنه قد توله بدامسة، فإنه قد عجز أن يخطو خارج هواجسه.

وإذا نظرنا لقصة دامسة ضمن سياق سردي يجعل من المكان سلطة عليا نجد أن معظم هذه القصص قد عبر علي نحو ما عن علاقة الرجل بالمرأة بوصفه بعداً واقعياً سواء في خصوصية المكان أو تاريخية الحدث، الذي يستدعي ماض ما يتكشف عبر قانون اللغة الخاص بكل الأبعاد الإشارية التي تحرص على نفي آنية الحدث، لكنها لا تحرم المتلقي من البحث عن إسقاطات تستمد وجودها من أرضية القص وجو اللغة وفضاء الدلالة العريض. غير أن سيكولوجية العلاقة بين الطرفين في قصة (قصة دامسة)، وانهزام الرجل، في ذات القصة، أمام نفسه وأمام مجتمعه تجعل من المرأة فنتازيا تقترب من ميتافيزيقية الجن. فدامسة ليست إلا ذاكرة البطل المغلقة، والمضطربة أمام جلال المغيب. كما أن دامسة المغيبة بفعل طقس اجتماعي تغدو قلق البطل الذي يتحول إلى صراع مع قوى تحرص على كسر إنسانية العلاقة.

فالبطل، وقد أحب دامسة، وجد نفسه منذ البدء متهماً في عقله. فدامسة لا تخاطبه إلا لتدعو بزوال عقله «الله يأخذ عقلك». ورغم أن السياق الذي قيلت فيه يفصح أن هذه الجملة تعتبر تعبيراً شعبياً يكتنفه إعجاب ما من قبل دامسة، فإن الدلالة تبدو أكبر إذا ربطت بالتحول الذي أحدثته القصة في علاقة البطل بدامسة. إن دلالة ذهاب العقل وتغييب المرأة من جو النص وفصل العلاقة بين البطل ودامسة أحالت هذه العبارة «الله يأخذ عقلك» إلى موتيف يحكم وضعية العلاقة في مجتمع يكرس العزلة بين الطرفين. لقد دأبت دامسة، عندما تطل من كوة النص المحكمة الإغلاق، على ممارسة عبثها أو سخطها بهذه العبارة لتتحول في النص إلي محرض على استدعاء دامسة ليس من خلال تفاصيل جسدها، بل من خلال خطابها الساخر. إن المفارقة تكمن في ربط استدعاء هذه العبارة بالحديث عن المكان. فالبطل عندما يستدعي هذه العبارة يستدعي معها تفاصيل المكان وخصوصيته، وكأن المكان هو الحائل الطبيعي بين البطل ودامسة. غير أن النص في نهايته يفضي إلى

أن إشكاليـة المكان هي في الحقيـقـة إشكاليـة الرجل عـنـدمـا يـحـيـل المرأة إلى كـائـن ذي حـضـور هـلامي، مغيب يتساوى في حضوره مع ميتافيزيقيا الكائنات الخرافية.

ومـهـمـا يـكـن فإن الـبـطـل ذاته يـؤكـد عـدم قدرتـه على إدراك «الفرق بين الحلم والحقيقة». وربما أن هذا هو ما جعل البطل يسقط في خضم الخوف والتردد. ففي قصة دامسة يقف الرجل على خيبته بعد أن تلاشت دامسة من حياته بفعل زواجها من أول قادم يطلبها للزواج. إن دامسة بوصفها اسماً يخلق المفارقة مستدعياً حرفية الدلالة القاموسية للكلمة. فدامسة هي المخبوء، المستتر دوماً بفعل الطقس الاجتماعي الذي يكرس حرفية الدلالة. فالظلام ليس إلا المجهول، والمجهول ليس إلا ما لم نستطع تحقيقه. فالبطل يغرق في حبه لدامسة دون أن يتجرأ على تجسيدها في خطابه. فالعائق وإن بدا اجتماعياً فربما أنه إشكالية فردية لدى البطل نفسه. ففشله هو فشل الذات على هدم جدار الخوف والتردد.

●●●

تُعد هذه المجموعة إضافة مهمة ليس فقط بالنسبة لقصص محمد علوان، بل لمسيرة القصة السعودية التي أخذت على عاتقها التعبير عن هموم الفرد في سياقه الاجتماعي والتاريخي، ملتقطة جزيئات ضرورية في جسد العلائق الاجتماعية، ثم قولبتها في نسق تحكمه شفافية الفن وسلطة الرؤية الذاتية.

د. حسن النعمي

(3)

في توظيفه رمز المرآة المشروخة يلتقي محمد علوان مع الحداثة في أكثر تياراتها اتساعاً، لكن دون أن يفقد - وهذا مهم جداً - خصوصيته الثقافية أو الذاتية. فالمرآة المشروخة تظل جزءاً من عالم قصصي تملأه الأرض رائحة وأهل القرية البسطاء حياة وحركة وانفعالات: «الحب ارتباط رائع.. امتزاج تمثله المرأة والأرض. ليس هناك انفصال. الإنسان بلا أرض إنسان بلا حب أو قضية» (الاتجاه شرقاً). فليس وجود تلك المرأة إلا نتيجة البحث الدائب عما وراء المظهر السطحي البسيط لجوانب معينة من حياة البشر سواء في القرية أو خارجها. وبدهي أن ذلك البحث لم يكن ليبدأ لولا الارتباط بالإنسان والأرض ولولا الهاجس الجميل في نقل ما يتكشف للفنان إلى الآخرين.

الذي تجدر ملاحظته هنا هو أن المرآة المشروخة تأخذ البعدين المألوفين: الشكل والمضمون. القصة عند علوان تقدم صوراً مشروخة عبر مرايا مشروخة أيضاً، والمرايا هنا هي القصص نفسها بتشكيلها الفني، بتقنيتها ولغتها. في مجموعة علوان الأولى الخبز والصمت نجد أمثلة على هذا التفلت في سردية المرئيات وانسجامها، إلا أن ذلك التفلت يظل محدوداً إلى حد ما بشيء من التناول الواقعي، كما في «الجوع كافر» و«السؤال الثالث» و«خضراء» التي تأخذ طابعاً سردياً تحمل فيه المرايا سطوحاً غير منكسرة.

الانكسار يتحقق بشكل أكثر وضوحاً وحدة في الحكاية تبدأ هكذا مجموعة علوان الثانية. هنا نجد قصة كـ «الجرح» تتباين فيها أحجام الأشياء، ويختلط المعقول باللامعقول، وتتحدث الكتابة عن نفسها. الجرح هو عدسة الرؤية وهو الإطار الذي تتجمع فيه الأشياء والناس.

د. سعد البازعي

(4)

يتحرك محمد علوان - وخصوصاً في مجموعته الأولى «الخبز والصمت» - في اتجاه تكوين علم خاص متمرد على معطيات الواقع، وهذا العالم أقرب إلى الأسطورة فهو يتجاوز البعد المكاني والزماني ليغرق في فيض شعري ويتعامل مع عناصر كونية، فالقرية الملحية - (وهي قرية واقعية الملامح) ولكن الكاتب ينتزعها من وجودها الواقعي ليحولها إلى ساحة أسطورية، يرفض القمر أن يوقظها، وتتحول المعنويات إلى مجسدات مادية، وهو في منهجه هذا لا يعمد إلى تقديم قصة أسطورية واضحة المعالم، وإنما يلجأ إلى بث الأجواء الأسطورية وبذر عناصرها، فكثيراً ما تختلط الأحداث الواقعية بالوقائع الأسطورية، إنه يقيم أسطورته الخاصة مستغلاً الكثير

من العناصر الفولكلورية والموروث الشعبي مستفيداً من تراث البيئة المكانية وملتحماً بها.

وفي مجموعته الثانية «الحكاية تبدأ هكذا» ينسج (الرؤيا/ النبوءة) من خيوط الحكاية الشعبية ويوظفها توظيفاً جديداً مستغلاً عدة عناصر منها: سلسلة السند المألوفة في التراث كنوع من التوثيق مما يكسب الحكاية عنصر اليقينية، ويشحنها بالمفارقة التي تتمثل فيما يومئ إليه السند وما يتفجر به الحدث من وقائع خيالية. فالمفارقة واضحة في طريقة البناء ولكنها تتجاوزها إلى الرؤيا.

وتتوازى الخيوط الأسطورية مع الخيوط الشعبية في بنية دلالية محكمة، ففي حين يشير الكاتب إلى بيئة مكانية هي القرية، يحرص على أن يشيع في هذه البيئة الملامح الأسطورية وكأنها تنتمي إلى عالم آخر، عالم بدائي يتوازى مع معالم الأسطوري القديم.

... وهو ينغمس في أجواء الأسطورة الشعبية مضيئاً لها من خلال آفاق المستقبل بروح متفائلة ترى

الغد في عيون الأطفال الذين ينهمرون في غيب القرية ليفرشوا الساحة بساطاً أخضر.

د. محمد صالح الشنطي

قصص مختارة
لراوي العدد

الخبز والصمت(*)

ومر ليل آخر وهو يفكر ملياً فيما قاله له والده بالأمس بعد تلك المقدمة الطويلة عن الموت والحياة.. وصل فيها إلى النهاية.. إلى ما كان يجب أن يقوله في لحظة من الزمان.. [يجب أن تتزوج..]. ابتسم في داخله استهزاء وسخرية.. حرص في الوقت نفسه أن يكون وجهه مرآة مختلفة عما يجيش في أعماقه ويعتمل في صدره.

أليس لك سوى الصمت وهو في كل الحالات التراجع الوحيد والهزيمة الفريدة التي يدركها الجميع لكنها لا تحسب هزيمة.. ولا تراجع.

الصمت.. الصمت ربما يكون في قليل من الأحيان منطلقاً لصرخة متورمة.. وهذا شيء نادر.

*) من مجموعة الخبز والصمت.

جس بيده ذلك الجرح القديم فوق أصابع يده اليمنى.. تمنعها من الحركة أو الدفاع أو حتى الاعتراض.. أبسط حقوق الإنسان.. ويقال والله سبحانه العالم بالحقيقة: إن أهل قريته ورثوا هذا المرض الغريب.. صواب أن أهل قريته تنتشر فيهم الأمراض بأنواع مختلفة.. جسدية كانت أو نفسية.. تتعدد.. تختلف أما هذا المرض فقد انتشر أشبه ما يكون بصفة وراثية يتناقلها الأبناء عن الآباء.. تحسس لسانه.. نظر إلى وجهه في المرآة.. وفطن إلى أن الأمراض إن لم يرثها فإنها لابد وأن تنتقل بالمجاورة.

نبت الصمت.. غابة وحشية.. شق صوته الموجه لأبيه بوضوح تام.. ولأول مرة – السكون صوت هادئ ينم عن الثقة والارتياح في اختيار القرار.

– قال: لا.. أن تقول «لا» فأنت تمارس أدنى درجة من الحرية.. خرج دون أن يعرف ماذا ترك قوله من أثر.. لعله أحس بمعايشته المزمنة.. ماذا يمكن أن يحدث وهو العاق الأول في عائلته.. خرج بلا هدف

محدد سوى أن الخروج هدف في حد ذاته.. نشوة لم يعهدها تنتشر فيه.. شعر بالامتلاك.. سمع صوت الساقية وأدرك أن ما كان يسمعه من حزن صادر منها إنما هو انعكاس لحالته النفسية.. اللون.. الصوت.. الحركة في الخارج ليست جميعها سوى صدى حقيقي لما نحسه هنا في أعماقنا.

وكان الليل.. بحيرة فحمية الضفاف.. وكان الليل.. طويلاً كطريق مسافر بلا وجهة.

استلقى على فراشه.. يتابع بأنظاره السقف الخشبي بأعواده المترامية حيث غلب عليها اللون الأسود القادم من تنور أنهكته النار المشتعلة دائماً لكل عابر سبيل.. الدفء.. الخبز.. الفراش لكل ضيف يطرق الباب.. ولو مات سكان المنزل برداً.. وجوعاً.

أيتزوج؟ ماذا يمكن أن يحدث؟ أن يتغير؟ أن يتجدد؟ أيضيف إلى وجوده كارتباط مزعج ارتباطاً آخر.. ما نوعيته؟ ما مدى استمراره. أين السلب والإيجاب.. وقال صديق عاش لنفسه: لا تتزوج..

فستفقد حريتك. حينها ضحكا بصوت عال.. ضحكا بألم شديد.. وعرفا أنهما اكتشفا جرحاً قد تعاهدا على نسيانه.. فصمتا إيماناً بالحقيقة.

غادر عيونه النوم.. بعد ساعة أنهكته تفكيراً وخواطر.. أزعجته.. فترك المكان إلى منزل صغير في طرف المدينة.. فتح الباب دون أن يطرقه.. دخل إلى الغرف جميعاً.. واحدة.. واحدة.. يعرف ألوانها جميعاً.. وسكانها.. إحساساتهم.. حركاتهم.. سكناتهم.

وبدأت الحمى التي يشعر بها بمجرد لقائه بسكان المنزل.. حمى يعرفها مسبقاً.. يحسب لوقوعها الدقائق والثواني.. الحمى وصلت إلى درجة عالية من التوتر.. والدفء والنشوة ثم.. انحدرت سهلاً واسعاً.. أخضر يشقه نهر طويل.. يصطدم فجأة بماء البحر... حيث الملح والأمواج والشموس.

جفف حلقه بما ابتلعه من بقايا لعاب.. وأحس بالدوار.. خرج. ولم يلتفت وراءه. وصل إلى منزله مع بزوغ الشمس.. رائحة البن.. والخبز.. والصمت تنتشر

في المكان.. العائلة بكاملها تفترش الأرض.. عيونهم ترتفع إلى وجهه.. لتقفل راجعة إلى الأرض مرة أخرى.

الكل داخله يعجب لهذا الاعتراض الوحيد الذي مارسه.. الكل مسرور.. كل منهم بوده أن يصل الشاطئ الذي وصل إليه.. إلى النتيجة دون ما تحمله كلمته العجيبة.. «لا» من دهشة وألم وعصيان.

[«لا» أتقولها؟ وبكل وقاحة أيها ....؟]

الأم تتحرك في مكانها.. تتأهب للحديث.. منطلقة من وجودها كأم.. من وجودها كامرأة تقول شيئاً.. أي شيء.

يحدجها الأب بنظرة تتحرك إلى صرخة في وجهها المليء بعلامات الاستفهام والضعف والتراجع الحزين.

- أنت من بينهم جميعاً.. ليس لك الحق في الحديث.. الحديث لي أولاً وأخيراً.

سقط الحزن في قاع القلوب.. وفي القنديل

ذبالة عطشى.. وخرج ثعبان من جحره بعد أن غير جلده.

بلاغ كاذب(*)

دقت الساعة المتعبة الواحدة بعد منتصف الليل.. مد يده المثقلة بالنعاس.. سقطت أصابعه على غطاء صوفي.. عمر به جسده المتكوم تحت غطاء آخر.. رفرف طائر النوم.. انسل من بين جفنيه.. خرج من النافذة.. مكث يرقبه حتى.. توارى في رحم الليل.. أيضيء النور؟ يقرأ.. كذب كلها الحياة.. أيصغى لهذا الصندوق الثرثار.. لابد له أن يسمع عن هذه الحروب القذرة.. تلك البيانات المتتالية عن الشرف والبطولة.. عن ذلك المجد الوهمي.. الموت للشعوب.. البقاء للقادة.

تلك هي الحقيقة. استوى جالساً. أخذ كأساً من الماء البارد قذف به القطة الغافية.. تموء فزعة..

*) من مجموعة الحكاية تبدأ هكذا.

حسدها على غفوتها.. نفضت شعرها مراراً.. تكومت مرة أخرى واندست في غفوتها من جديد.

نهض من فراشه.. استمع إلى المذياع.. سقط مؤشره على اتصال غريب سمعه للمرة الأولى.. نبتت في صدره أشجار الفضول.. أصغى للصوت في هدأة الليل.. حول.. حول.. كل شيء تمام.. يسري الصمت لفترة قصيرة ينبثق من المذياع صوت آخر: عمليات عمليات.. قبضنا على شاب له شعر طويل ومعه امرأة.. أفاد بأنها زوجته.. حول.

عوض الله عن برامج التلفزيون المملة.. ذهب إلى المطبخ.. صنع لنفسه إبريقاً من الشاي وحمل المذياع معه.. النوافذ مغلقة.. كل شيء تمام.

صدر صوت.. أصغى العمليات معك: أطلب من الشاب إثبات شخصيته حاضر يا افندم انقطع الاتصال. سمع صوتاً داخل المطبخ.. نظر فإذا القط يغرق في نعاسه.. سار بهدوء.. تحول إلى أذن كبيرة وصل إلى باب المطبخ.. كانت عصا المكنسة في يده.. فتح الباب.. تذكر الأفلام الأمريكية فإذا به في

مواجهة رجل. عقد الخوف لسانه.. واحد من هذه الجنسيات التي فاض بها البلد.. كان جسده قوياً.. والمفاجأة على وجهه.. تراجع إلى الوراء بحذر.. مد يده إلى الخلف. سقطت فوق سكين.

عمليات. عمليات: الشاب معه هوية.. المرأة غير مضافة معه ما العمل؟ ٩ قلت هذا اسمه الثلاثي.. انتظر حتى تأتيك الأوامر.

عمليات ٢١، ١٥، ١٩، ١٠٧ الإجابات متشابهة.. وكل شيء يميل إلى الهدوء. الطرقات خالية من المارة.

عمليات. عربة الدورية رقم ٩ بحاجة إلى رافعة لسحبها.. لم يستطع التقدم إليه.

نظر الرجل يمنة ويسرة.. يبحث عن كل مكان للهرب.. بيده كأس مملوء.. دقت الساعة المتعبة، بردت أطرافه.. أحس بحلقه جافاً كنفق تصفر به الريح.. مرر لسان فوقه شفته.. حاول التراجع.. قدمه لاصقة.. يحاول سحبها.. لا فائدة الرجل يمسك

السكين. نظر إلى النافذة.. حاول أن يصرخ.. صوته مدفون في داخله.

عمليات. عمليات. أفاد الرجل بأنه ابن الرائد.. لم يسمع الاسم.. حول.. العمليات معك. خذ رخصة القيادة وأطلقه.

أحس بجسم ناعم يمر بين ساقيه.. امتلأ رعباً.. عيناه متصلبتان ووجه الرجل الغريب أصبح مألوفاً.. ومنتشراً على أعمدة الكهرباء.. الهاتف.. المطاعم.. الفنادق.. المطارات.. السيارات.

وجه الرجل الغريب غطى كل الوجوه المألوفة.. الغربة العكسية ملأته منذ زمن.. الجسم الناعم يحتك.. لم يطق صبراً.. صاح بلا وعي.. انفجر صوت أشبه بالمواء.. شعر بأسنان حادة تنشب في ساقه وينبثق الدم نازفاً.. لحظة الرعب المضاعف.. استغلها.. الوجه الغريب المألوف.. دفعه.. سقط أرضاً.. انطلق داخلاً إلى ظلام الخارج.

الدم لايزال ينزف.. اتصل هاتفياً.. أجابه صوت متثائب.. انت اسمك إيه؟ أنا فلان. والدم ينزف

مني.. الصوت النائم.. نزيف؟ نزيف من إيش؟ لم يستطع الصبر. أغلق السماعة.. خرج.. الدم ينزف.. الشوارع خالية.. ضوء أزرق قادم إليه.. سقط.. استيقظ داخل عربة رسمية.. أصاخ السمع.. ألو عمليات.. معنا جريح يهذي.. أفاد بأن قطته تسببت في نزيف الدم وأن هناك لصاً قد اقتحم منزله.

قمنا بتفتيش المنطقة. لا يوجد أحد.. الحالة مطمئنة.. نعتقد أنه مريض. أغمض عينيه.. وجد نفسه مسجوناً.. رجله اليمنى ملفوفة بالشاش.

سأل عريفاً في مواجهته عن سبب بقائه.. التفت إليه طويلاً.. قال أنت مسجون بسبب الإفادة الكاذبة.

دقت الساعة المتعبة الثامنة صباحاً. تذكر القط والغريب والمذياع.. ضحك بصوت مرتفع نظر إليه العريف شزراً هز كتفيه هامساً: أهل العقول في راحة.

دامسة(*)

- الله يأخذ عقلك..

حين نظر إليها ضاحكاً.. بادلته بنظرة..

ارتسم فيها كم من المعاني لم يعرف لحظتها كيف يفرز تلك المعاني، إلا أنه أحس بدقات قلبه تتسارع.. نفسه يضيق.. ابتلع ريقه.. أحسن بضعف يتسلل إلى ساقيه فلا تستطيعان حمل ذلك الجسد النحيل الطويل.

همست بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها:

- خبل.. وزاد الهمس انخفاضاً: خبل جميل.

تمالك نفسه وتذكر لحظتها أن لابد من موقف لا يشعرها بضعفه حتى أمام حسنها الذي لا يقاوم.

*) من مجموعة دامسة.

فما كان منه إلا أن ابتسم.. بادلته الابتسام.. ثم أشاحت بوجهها.. قالت لرفيقتها: هيا.

انطلقتا.. وقبل أن تغيبا، وفي آخر زاوية الشارع التفتت.. كان ثابتاً كالمسمار ولما يزل يرسل على وجهه صورة الابتسامة. عادت عضلات وجهه إلى حالتها الطبيعية، أدرك حينها أن الوصول تم.

ركض كما لم يركض من قبل.. ثم توقف فجأة.. وسار الهويني ثم عاود الركض، التفت إلى كل الاتجاهات فلم يجد أحداً. نظر إلى البئر. وأشجار التين تحيط بها من كل جانب. وشجرة التوت الضخمة تفضح خضرتها ثمارها البيضاء.

كان الليل دقيقة وراء دقيقة يدفع بضوء النهار إلى جهة الغرب، فلا تبدو في أعالي الجبال سوى تلك الحمرة الشفيفة ورؤوس الأشجار تنغمس في لون الخضرة الذي يميل إلى السواد.

شاهد قريته الحبيبة تكاد تنطق مداميك مبانيها، نتوء أحجارها. أبوابها الكثيفة، نوافذها الصغيرة.. شعر لحظتها أنها تشاركه فرحة خبيئة.

تكاد تفضحه رغبة في الصراخ والإعلان عن حبه لدامسة.

نور عجيب يضيء قلبه. حفظ عن ظهر قلب أحجار قريته حجراً حجراً، طرقها الملتوية، سبلها المسقوفة الخفيضة. تعود أن يمشي في الظلام، فتنتابه رعشة خفيفة لكنه عرف كيف يسير عبر أزقة قريته دون أن يصطدم بحمار رابض أو معدل مطروح على الأرض ينتظر قرار البناء.

الله يأخذ عقلك.. كأنه يسمعها لأول مرة، وللوهلة الأولى لم تثر لديه سوى شعور بالغبطة، تلك مرحلة من خوف، وقف فجأة، رائحة روث البقر تصعقه، تحرك قليلاً، توقف، كان أن يصطدم بالبقرة التي افترشت الأرض وهي تجتر عشائها تبين له جسمها بلونه الذي يميل إلى السواد. انزاح قليلاً، قفز فوق مجرى الماء المبتل، الليل شديد الإظلام، أدرك أنه وصل، رفع نظره.. ارتطمت عياه بسقف المنزل المهجور، داخله خوف حقيقي هذه المرة، جمع قبضته اليمنى على عصاه، وكأنه يستمد شجاعة غير منظورة، يمسك بها لتقيم عمود ظهره الذي انحنى،

وقف متصلباً، هبت نسائم باردة، والجميع داخل بيوتهم ما عداه. الله يأخذ عقلك: تخرج من بين شفتيها، استعاد هدوءه. أمسك بقوة على رأس (مشعابه) أحس بصلابة تلك العصا تنتقل الصلابة إلى ذراعه، يستنشق هواء عميقاً.

صوت الكلاب يشق هدوء الليل من بعد، وفي الليل يسافر الصوت.. يجتاز المسافة. قبالة بيته، كان كالحجر الذي انغرس أشبه بمقعد طالما جلس فوقه، ينظر إلى بيوت القرية التي تتسلق الجبل، تتداخل ملتصقة ببعضها البعض. متقاربة، ينظر إليها الناظر كبيت واحد بعشرات الأبواب، بنوافذ متعددة تنظر إلى جميع الأنحاء، هل تخشى شيئاً تلك البيوت الطينية، هذه الأحجار الصلدة هل يقبع في داخل صلابتها خوف يشبه خوف الإنسان وحيرته؟!

مسح بناظريه النوافذ المشرعة حيث تنبثق منها أضواء الفوانيس حيث ترتسم فوق الجدران، داخل البيوت خيالات أهل البيت، الداخل والخارج، يشاهد بين حين وآخر رأساً يقترب من النافذة تكاد لا تبين ملامحه، لكنه يعرف حين يرتفع صوته مهللاً.

أمامه.. يقبع بيته وحركة أمه داخل (الملهب) الذي امتلأ بالسواد تشعره بقرب وقت العشاء. لا يدري لماذا تذكر وجه خالته.. ذات السمنة الواضحة، تذكر شعرها وقصتها المستوية، يلمع دهناً وسواداً حالكاً، أسنان ناصعة البياض، كاد الضوء الخافت يموت والنور المتراقص المنبعث من الفانوس يعطي للظلال بعداً، ويعطي للأجسام أحجاماً هائلة.

أرعبه في تلك السن، صوت الكلاب الذي بدأ يتعالى لم يعد يرى الوجه السمين، الأسنان البيضاء، انسل في هدوء كاذب إلي المنزل، وحين أغلق الباب انتشله صوت أمه تذكره بإحكام إغلاقه صعد الدرج العريض ورائحة روث الأغنام لاتزال تزكم أنفه.

تلك البقعة الضوئية تتراقص على وجه خالته، تغطي جزءاً من الأنف، من الأذن، يشاهد من زاويته نصف الفم، بريق أخاذ يبحر به نحو الوجه الذي يعرفه، ثم يخفت الضوء شيئاً فشيئاً تنهمر من فمها الحكايات، والأفواه فاغرة والنعاس الذي يثقل الأجفان يجعلنا لا ندرك الفرق بين الحلم والحقيقة.

عنز الجبل.. أشبه بوحش خرافي يملأ المكان، تضج به الزوايا، تلك العنز.. هي من بنات الجان فقدت حبيبها الإنسي، الذي غادر إلى الشام التحق بالجندية، أقسمت على الانتقام، خرجت من القرية، سكنت أعلى الجبل حيث الأشجار المتواصلة ووحوش الليل التي لا تهابها ولا تخشاها. وحين يصرخ حيوان أو إنسان فإن هذه العنز اللعينة تعيد الكلام فيخترم القلوب هلع يعجل بالخطى.. ويخرس الألسن. تجاوبها الجبال فإذا بالصوت ينتقل من مكان إلى آخر.. يحمله طائر الليل الذي لا يؤوب يهرب أطفال القرية في الليل الدامس إلى الغرف الضيقة، يشعرون بأنفاس بعضهم البعض. ويسري الهمس يستعيدون قصة عنز الجبل بعد العشاء الدسم. وعنز الجبل تخرج من فم الخالة السمينة البيضاء بعد أن ينطفئ المصباح.

في الظلام لا نتذكر إلا ذلك الفم. نتعلق به، نجفل، نقفل النوافذ برعب يجمد أطرافنا، يغتالنا النعاس، نحلم بالعنز وهي تعود إلى البيت المهجور،

نتمنى أن يخرج ذلك الثعبان. نتمنى أن يلتف حول عنقها، يخنق تلك الحنجرة التي ملأتنا هلعاً. هل يخرج ذلك الثعبان؟ ولمن يترك جوهرته التي يحرسها؟

فجأة.. يصحو من نومه، هدوء ثقيل، صوت الأنفاس، وشخير متتالٍ يضفي إيقاعاً ليلياً يشعره بالحياة.

الله يأخذ عقلك. سمع صوت انكساب الماء أدرك أنه وقت متأخر، القدم ترتطم بالتنكة التي أفرغت ما في جوفها فوق جسد مبتل بالعرق. هكذا تخيل زم شفتيه، ابتسم، سحب الغطاء فوق وجهه، أغمض عينيه، تذكر الطير، الوادي، أشجار الحماط. تذكر اشتهاءه الذي لم يستطع أن يغالبه حين نمت في عروقه رغبة أن يرى قربة الماء تسقط من فوق ظهر دامسة، أن يدهمها الماء.

تصور كيف يمكن أن تكون دامسة بدون القربة منتصبة دون انحناء.

لم ينم كما ينبغي. نظر إلى وجه أمه وهي تعد القهوة لأبيه بعد صلاة الفجر.

وحين تلاقت نظراته بعيني أمه أدرك أنها تخفي شيئاً.

نظر إلى الوجه الصلب الذي يحمله والده. حين شرب الأب فنجان القهوة الساخن. التفت إلى الأم وقال بصوت ثلجي: دامسة!! التفت الابن والأم إلى الوجه الصلب بشعورين مختلفين، شعور بالطاعة العمياء، وشعور اختلط فيه الأمل بدهشة من يعرف أن سره انكشف ابتسم ونظر إلى الوجه الصلب:

- أقول دامسة توفقت وجاء لها عريس من أبها.

منذ تلك اللحظة وهو يصعد بعد كل غروب إلى منتصف المسافة نحو قمة الجبل ويصيح بأعلى صوته: دامسة. فترد عليه عنز الجبل: دامسة. دامسة.

محاولة فاشلة للهروب

كنت وحيداً، وسط هذا الضجيج، لا أعرف كم من الوقت الذي أهدرته في هذه المدينة التي شكلت ملامحي، غيرتني، تسللت مثل الغبار الذي يميزها رغم كل الاحتياطات لكنها عبثت بكل شيء.. بل تجاوزت كل الحدود.. وصلت إلى القلب، أيقنت ليس اختياراً، لكن هذه المدينة تجبرك على الصبر ومن ثم ينقلب الصبر إلى يقين وهنا مكمن الخطورة، حين غادرتها، غادرت الأحبة، قلت لي: اخرج وجرب هواء آخر، شاهد وجوهاً أخرى، انزع الأقنعة وكن كما أنت، حين اتجهت شرقاً، دخلت إلى عمق الصحراء وكأن رمالها الصفراء المتحركة تدفعك إلى البحر، حيث الزرقة الأخاذة تهدأ الروع، تبلل هذا الجفاف الذي خلقته الصحراء.

قلت لكم، كنت وحيداً، وخفيفاً، متخلصاً من

كل الأشياء... كل الأشياء، كان الطريق مبصراً، فأنا لا أحب القيادة إلا في النهار، كانت الصحراء تحاصر هذا النفط القاسي هذا الثعبان الذي لا يملك رأساً. وحين تعبر بي تلك اللوحة الغبية (طريق صحراوي) أبتسم، آخذ جرعة من ماء، وأنظر يمنة ويسرة وإذا بالجمال ذات اللون الأسود تعطي المعنى الحقيقي للصحراء، قلت لكم كنت وحيداً، أو بالأصح قررت أن أكون وحيداً إلا معي وها أنا.

اعتدت السكن في نزل أرتاح له، لرائحته، للعيون التي تبتسم لي للغرباء الذين تدرك في داخلك أن الشعور بالآخر هي تلك اللحظة التي يخطط لها الزعماء ويفقدونها عند أول ساعة من حكمهم. كما هو الاعتياد، أدخل إلى مكتب النزل وكما هو الاعتياد دون حجز مسبق ينظر إليك موظف الاستقبال مرحباً. يا للحظ!! يذكر اسمي ويسأل عني وعن عائلتي، ثم يردف هل قمت بحجز غرفة؟؟ كدت أقول له بكل جنون: سوف أسكن هنا مع أي شخص لا تهمني حتى جنسيته، ديانته أنا يا سيدي وحيد

بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أشار بلهجة وظيفية محايدة: تفضل انتظر.

أمام صالة الاستقبال كانت الساعات على مدار العالم توضح فارق التوقيت أكره الوقت وأكره الساعة لأن المسألة محسومة وفي الوقت نفسه غير معروفة وبين هذين التناقضين لا فائدة لحساب الوقت.

يتسرب الزمن وأنا أنظر إلى تلك الساعات، كنت أدخل لعبة غبية فأهرب إلى الساعات التي تسبق ساعتي هذه، أضحك على نفسي لكنها في لحظة ما تشفي الغليل، وهي بالأصح تشبه تلك اللحظة التي أقرأ فيها الأبراج، حيث انتقل من برج لبرج وحين اطمئن برج منها أختاره، وأشرع حينئذ بالراحة، أما في الأسبوع القادم فسوف أختار برجاً آخر وأطمئن.

ها هو يشير إلي، أتقدم إليه بفرح مخبوء، وها أنا أدخل الغرفة.. فإذا بهذا الكون الفسيح، تختصره هذه الغرفة، وبدأت الحرية بشكلها البسيط وها أنا أشبه الآخرين.

كان البحر يحيط بي من كل جانب، يداهمني الشعور الغريب وأحس أنني في غرفتي هذه أمسك بالبحر وأدخله إلى قلبي، وأن تلك الحركة التي يصدرها القلب بشكل مفاجئ في الصحراء والتي لا أعرف لها إجابة إنها لها معنى لا يجلب الخوف.. مادام البحر في قلبك فإن معنى ذلك أنها موجة خرجت من السرب فاختلف الإيقاع هي هذه الأشياء، ابحث معي عن الأسباب البسيطة. حين تعرفت على غرفتي وألفت رائحتي استأذنتها بالخروج ووضعت على مقبض بابها ممنوع الإزعاج وكأنني أحذر الآخرين بعدم المساس بها، بإزعاجها وها هي تحتفظ بي لحين لقاء آخر هكذا تصورت.

تلك العازفة (المجرية) تشعرك بأن الكمنجة التي تعزف عليها قد شكلتها من أضلاع هذا الجسد الناحل، وأنا أدخل هذا العالم بين العازفة وبين الموسيقى التي دخلت إلى البحر الذي ملأني.

فجأة وإذا به أمامي كنت بطبيعة الحال أرتدي ملابسي العقال، الغترة، القبعة، الثوب الأبيض، الملابس الداخلية والجوارب والحذاء الأسود.

فجأة وإذا به أمامي، إذا به أمامي، أصابني خوف عجيب، هل يعقل أن يشبهني إلى هذه الدرجة، إنه أمر من الصعوبة بمكان. تعوذت من الشيطان مئات المرات، لكن لا فائدة، ها هو أو ها أنا، من المستحيل أن أكون في مكانين في الوقت نفسه. كرهت تلك الساعات وكرهت فارق التوقيت لكن المسألة أخذت جانباً حقيقياً هذا الذي أشير بإصبعي إليه دون أن أثير انتباهه هو أنا أقسم بالله أن الملامح هي نفسها الضحكة الحركة الجسم وكان وحيداً.

هل ترغب في المزيد؟ قلت لها: شكراً هل لي بقيمة هذه اللحظات، غادرت المكان راودني شعور أنه يتابعني، امتلكت قليلاً من الشجاعة، ولم ألتفت إليه كنت جائعاً، إلا أنني قلت لي: حافظ على هذه المتعة، هبطت ثلاث درجات انحرفت يميناً ثم يساراً، تنامى الحس بوجوده في مكان ما. حاصرني بنفس العطر الذي يروق لي، جاهدت نفسي بألا ألتفت خلفي ذلك لأن شخصاً ما يتبعني، بل قررت ألا ألتفت خلفي، فجأة انطلق صوتي بأغنية جنوبية، لم أكمل أبياتها ياللنسيان العظيم لكن صوته ذكرني

بها بأبياتها غنى حتى الأبراج، لا أعرف في أي برج ولدت فيه لكن المسألة بشكل علمي يمكن الحصول عليها، هدأ الخاطر قليلاً ثم مالبث أن ثارت شكوكه وطرح السؤال الذي كدت بعد طرحه أن التفت ورائي، كان السؤال وهل تعرف برجه؟

وبحركة سينمائية توفق بين رغبتين متناقضتين استدرت بسرعة لا يحتملها الممتلئ عدت إلي الورا ء بطبيعة الحال لم أجد أحداً سوى بعض القادمين من مشرب وهم يضحكون بصوت عالٍ، تمنيت في تلك اللحظة أن أراه أن أسألة بطبيعة الحال عن تلك الأسئلة: من تكون؟ ما هو برجك؟ عدت إلى موقعي السابق واقتربت مني تلك الهندية الحسنا ء لم تمنحني الوقت لطلب المشروب. لوهلة وجدته قد سبقني وطلب ما أردته كنت غائماً وحزيناً، ووحيداً، السيجارة في يدي مشرعة وكأنها سؤال وفجأة وإذا بيد تمتد لتشعلها، ولوهلة أصابني خوف. ذلك الخوف الذي يصل إلى الحلق، هذه اليد أعرفها هل أرفع نظري، لا، نعم، بغمض العينين، استسلمت لاشتعال السيجارة بشكل مباغت فتحت العينين لأكشفه وإذا

بتلك الهندية هي التي أشعلت السيجارة، عاودتني السكينة، عزفت أضلاع المجرية الحسناء أغنية فيروز وجبران أعطني الناي نسيت للحظة أنه موجود ، وكما العافية التي تجتاح المريض، تمكنت من رؤية الآخرين بمفردي. صحوت على تصفيق الاستحسان ولكن بشكل فردي، التفت يميناً ويساراً فلم أجد أحداً سواي، وحين التفت إلي العازفين فإذا بهم جميعاً يحنون رؤوسهم لي وأنا لم أصفق، عرفت أنه موجود في مكان ما ، التفت وإذا باللوحات لازالت تضم تلك الخيول التي تجمدت بحركتها ، تمنيت أن أزور ذلك المكان وأجدها بلا خيول، مجرد إطار، أيها الأنا قم، حاسب، اذهب إلى غرفتك، توضأ ثم ادخل فراشك ورتل، حين أشرت إلى الهندية الحسناء عرفت منها بتلك اللغة الإنجليزية المليئة ببهارات الشرق أن لا داعي لدفع الحساب، حاولت بلغتي الركيكة أن أفهمها وبشكل حضاري أنه لابد من دفع الحساب، اختلط حسنها برغبتي أن أكون متمدناً أن أقنعها بذلك إلا أنها أعادت لي الفاتورة وقالت لقد وقعت على حساب غرفتك بل كنت أكثر تهذيباً ومنحتني

بقشيشاً جيداً حين رأيت توقيعي ورقم غرفتي ابتسمت ابتسامة بلهاء انحنيت أمام الفرقة الموسيقية وقررت الصعود إلى غرفتي دخلت الغرفة، وضعت العقال وما احتواه على طرف السرير، كعادتها الفنادق الكبرى تضع قطعة حلوى فوق المخدة، أنا كما قلت لكم وحيداً، دخلت دورة المياه وحين عدت وإذا بقطعتي حلوى فوق المخدتين، اتجهت إلى الهاتف حاولت الاتصال بمنزلي، كان مشغولاً بشكل زاد من توتري، وحين سمعت الصوت من الجانب الآخر: أهلاً حبيبي، قلت لها: كيف الأولاد؟، كيف أنت؟ أجابتني بصوت مليء بالنعاس والدهشة: آمل أن لا تكون متعباً لقد حدثتنا قبل ساعة وسألت نفس الأسئلة. لم أنم طيلة تلك الليلة، أكلت الحلوى، علّ النعاس ظالم داهمني فنمت لم أعرف كم من الزمن الذي استغرقه نومي، لكن الشعور بالخوف تعاظم حين أفقت فلم أجد الحلوى الأخرى، كالمسعور جمعت ملابسي وهبطت إلى الاستقبال لكي أغادر وحين أشعرتهم برغبتي في المغادرة، قال لي حسن حسابك مدفوع، بغتة رفعت ناظري إلى الساعات حول العالم

وإذا بها نفس التوقيت، كنت أسابق درجات السلم الكهربائي وحسن يصيح بأعلى صوته: الجواز، الجواز.

هاتـــــف

إلى هيلة بنت أحمد

لايزال رقم والدي ورقم أخي وأرقام الأحباب، تحتل في مفكرة الهاتف مكانها، وبحبرها الذي لم يبهت حتى الآن.

قررت شطب هذه الأرقام.. ها أنا أمتشق القلم، ها هو لعابه يكاد يسيل، لكن رجفة مفاجئة اجتاحت يدي، وخفق قلبي، وجه أبي يحتل الأحرف الدالة على اسمه، وجه أخي يطل من كل حرف من حروف اسمه، الأصدقاء الذين عبروا إلى الضفة الأخرى لأول مرة، وإذا بي أمامهم وجهاً لوجه.

كان الجو شديد الحرارة في الرياض، شديد البرودة في أبها وأنا في الأتون، أطبقت بيدي اليمنى على غطاء القلم الذي ابتلع سائله وسط ظلام هائل.

حينما مررت بالمقبرة، أشحت النظر بعيداً، وقررت أن أسلك في المرات القادمة طرقاً أخرى، وربما تكون أطول قليلاً، إلا أنها تقصر على طول الحزن.

الطريق إلى بيت عمي لا يسلك سوى هذا الطريق الذي تفرضه أمي، وبرغبة صارمة لا يمكن عصيانها، أشحت بنظري عن رؤية المقبرة رفعته إلى المرآة الأمامية في العربة التي تنقلنا، فإذا بوجه أمي يعود بحركة بطيئة بعد أن غابت المقبرة خلفنا وإذا بالدمعة الصامتة تفرد جناحيها، وترفرف على الجميع، والعربة مكتظة بصمت أخاذ، يد أخي تجهز على صوت المغني الذي ينبعث من مذياع العربة.

قررت أن أخرج ذات يوم على قدمي، كنت مصمماً في البدء على القيام بالتريض لعل وهج النحول الذي فقدته منذ زمن بعيد يعود.

حين وقفت أمام الإشارة الضوئية، التفت يساراً فإذا بمسجد الملك فيصل، مر على زمن طويل حيث أضاءت الإشارة أكثر من مرة وأنا مصاب بالذهول الغائم، طيف ابتسامته ساخرة تعبر ملامحي، حيث

أن من المفترض أن أنعطف يميناً دون الحاجة للوقوف أمام الإشارة الحمراء.

أدركت أن هناك سبباً غريباً يدفعني للاتجاه قدماً، سوف يكون النادي الأدبي على يساري، حيث كان يملأ حضوره الطاغي وجوه الأعضاء، لا أدري لماذا راودني شعور غريب بأنني على موعد معه، ها هو الحلاق التركي الذي كان يأنس له يحدثه عن «أبها» قديماً، وكيف كان الأتراك يطلقون عليها «اسطنبول الصغيرة». تجاوزت ذلك استيقظت قليلاً، حدثت نفسي خوفاً من الجنون: لقد مات كما يموت الجميع، كما نموت، ولا إله إلا الله.. الحي الذي لا يموت. في منتصف المسافة، التفت يساراً، فإذا ببيت العم عبدالله بن إلياس، وتلك الفسحة أمام البيت تستعد لخروج المرأة السمراء في مثل هذا الوقت، لتفرش الأرض أمام الباب بالسجاد وترتب المساند هنا وهناك لتصبح تلك الفسحة مجلساً مفتوحاً على الشارع التي لا تهدأ حركته.

انتظرت طويلاً.. طويلاً، لم تخرج المرأة

السمراء، ولم يخرج العم عبدالله بن إلياس.. ولم يحضر أبي ورفاقه.

دققت النظر فإذا بنوافذ البيت قد فقدت ألوانها المبهجة آنذاك وإذا بها مغلقة إلى الأبد، وأوراق الأشجار المتساقطة تغطي مجلس العصرية بديلاً عن السجاد والمساند.. صعدت عيني حيث تتأرجح لوحة كتب عليها «للإيجار» اليومي، الأسبوعي، الشهري، السنوي.

غالبت الدمع.. ها أنا أندفع نحو المقبرة التي كنت أشيح النظر عنها مراراً عديدة، ها أنا وبكل قصد أسير كالمذهول نحوها حينما قاربت أسوارها، وجدت الباب العريض والذي يسمح لعربة الموت بالدخول لإنزال ركابها الذين لا يمكن أن يعودوا على متنها، مقفلاً ولون الحديد يقول.. قف.

وقفت، فرت الدمعة من محجر العين، عندما استوى المشهد أمامي وبعد أن فارق الدمع عيني.. إذا بي أمام كابينة عمومية للهاتف ودليل الهاتف يتدلى كجثة.

استجمعت قواي، دخلت الكابينة.. حين تصفحت دليل الهاتف لم أجد سوى رقم أبي ورقم أخي وأرقام الأحباب الذين عبروا هذا الباب الحديدي المغلق.

الرياض 1422/6/7هـ
2001/8/26م

خيرية السقاف

***من مواليد** 1951 **(السعودية)**. **أكاديمية، وكاتبة مقالة. صدر لها مجموعة «أن تبحر نحو الأبعاد»** (1982).*

الفُجَاءَاتُ

الفُجاءةُ البَدْء:

حين جئت، انطوى الزمن حتى استحالت رُتل الخطوات إلى تلال من الثلج الأبيض...، وغرّدت العصافير، تطير مبلّلة الأطراف، والهواء... ينعش بفوح الزهور.

كانت الخطوة الأولى عند قافلة الزمن الذي

ولّى، وقافلة الزمن الذي جاء... عند القافلة التي أقلّتني... وتلك التي جاءت بك!!.

الفُجاءةُ التي تلت:

أيام، هي كل السنوات التي ظلت فيها التلال تضيء بياضاً، وتتوالد العصافير، تلقي بأجنتها فوق الساحات، تزرع رفرفة: الأضواء، وزغردة الأنحاء، والحياة من حولنا نغمة اصطدام الهواء بأطراف الشمس، بأطراف السجى، والليل لا يعرف الانكفاء فوق صدر الضوء.

الفُجاءةُ التي تجذّرت:

لحظات هي كل الخيوط الرهيفة بين كلمة وبين موقف، حتى وجدت التلال فجاءة تشعر بحريق الشمس.

الفُجاءةُ التي فاجأت:

ابتلعت الأرض تلال الثلوج، وغرقت العصافير، وحين استوت قمم تلال الثلوج بسطح الأرض، وغاصت دموعها في الداخل:

انكفأ الليل، والضوء وهو يشهق، كانت على صفحته لوحة مكبرة لانتحار الزمن الذي جاء... الكلمة التي تجذرت، الموقف الذي استبان.

الفُجاءةُ التي استقرَّت:

القافلة التي جاءت، ترحل، ولوحة الانتحار نعشاً يحمل الأيام، واللحظات، ورائحة العبق، يتلحَّف بياض الثلج، يطوي فوقه ما جئت به أنت... في رهجة الضوء، وما ارتحلت به وحدي من شفق الغروب.

عـبـدالـلـه
بـاخـشـويـن

من مواليد 1953 *(السعودية)*
أصدر مجموعتين قصصيتين:
الحفلة (1985)، ***النغري:*** *سيرة*
عصفور وقصص أخرى (1997).

الأنيق

قالت له أمي بضيق، وهي ترى الثوب الرث الذي جاء فيه:

- يا يوسف خاف الله في نفسك ادخل غيّر الثوب.

كانت أختى قد أخرجت من السحارة أحد ثياب أبي وألقت بامتداده على حجر أمي التي تفحصته برضى.

- وجه الله عليك.. لا تقول لا.

توسلت إليه بعد أن جذبت الثوب من بين يدي أختي بعصبية وألقت به إليه. طوى الثوب على ذراعه ولم يبارح مكانه.. نهرها قائلاً:

- صلي على النبي يا مرة.. لا تحلفي.

أشاحت عنه وقالت بحنق وهي تكشح كفها تجاهه:

- توشحوك يا سكني؟!

ثنى جسده بتثاقل وجلس حيث كان يقف.. لكزني بطرف عصاه وأمرني قائلاً:

- صب شاهي.

في ضحى الجمعة ذلك.. تحلقنا في مواجهة أمي.. نقتطع من قرص التميس ما نغمسه في فناجين الشاي متجاهلين كل ما اعتدنا سماعه من أوامر، بعد أن نهضنا من النوم جائعين.. ومضينا نحبو صوبها وهي تطلب منا طي اللحف وغسل وجوهنا. أخذنا نمتص قطع التميس بصوت نهم عال ونعيد غمسها في الشاي ثم نمتصها حتى تذوب في أفواهنا ونزدردها.

علا صوتها يحث أخي الأكبر على الاستيقاظ، فلم يزد على أن مد جسده بارتياح مستغلاً المساحة التي كنا ننام فيها.

في مثل ذلك الوقت جاء يوسف. سمعنا طرق عصاه على الباب وعرفنا صوته الأجش الذي نادى قائلاً:

- يا أهل البيت.

رغم فرحنا بقدومه شغلنا جوعنا عنه فلم نزد على القول مرحبين:

- الزاير عزيز.. تفضل.

دفع الباب الموارب ودلف.. قطع المسافة للحجرة التي نجلس فيها بخطى ثقيلة، بطيئة كانت كافية لأن تحكم أمي وضع الشيلة على رأسها وتفردها لتغطي فتحة صدر ثوبها.

حجب عنا الضوء عندما توقف بباب الحجرة زارا عينيه ليعتاد العتمة وهو يقول:

- كيف أصبحتم؟

قالت أمي تحثه على الدخول:

- حياك الله.. تفضل البيت بيتك.

جلس إلى جواري طالباً إكمال الطعام.

لابد أن أمي كانت أول من تنبه لرثاثة الثوب الذي يرتديه إذ مضت تتفحصه قلقة مستنكرة. وهي تسأل:

- منين أقبلت؟!

قال متجاهلاً قلقها:

- هذي جيتي من الديرة.

قالت:

- مرحباً بك ألف.. الله يحيك.

أردفت تفصح عن قلقها"

- أنت بخير.. عيالك طيبين.

ضحك مطمئناً وقال:

- الصغير والكبير يبلغكم السلام.

قالت:

- سالم وغانم.. زارتنا البركة.. زارنا الرحمن.

تسا ءل:

- أبوكم رجع؟!

قالت بأسى:

- يرد الله الغايبين سالمين غانمين إن شا ء الله.

اتجهت لأختي وقالت هامسة:

«جيبي ثوب أبوك من السحارة».

عاتبته قائلة:

- طلعت من عند أم عيالك بهذا الحال.

ضحك بصوت عال بعد أن فطن لمصدر قلقها.. قال موضحاً:

- حيلة يا أم العيال.. حيلة؟!

التفت نحو مكان نوم أخي دون أن ينتظر جواباً.. ضرب الأرض بعصاه مهدداً وصرخ:

- قوم يا حمار القايلة.. قوم.

تمهل أخي يهيئ نفسه للنهوض وقد عرف الصوت.

مضى يسأل أمي مشيراً لأخي:

- يروح المدرسة:

قالت شاكية:

- مدري عنه شوفه عندك اسأله؟!

- اصحى يا تنبل.. اصحى.

أكملت شكواها:

- يطلع الصبح.. وما نشوفه إلا في الليل.

قال يستحثه:

- تحسب نفسك رجال يا طقعان.

قالت مهددة:

- والله لو يدري أبوه أنه يشرب دخان..

صرخ يوسف مقاطعاً:

- عجيب.. تتن يا مقرود.. قوم خليني اتتن رأسك.

بدت تلك أفضل طريقة لجعل أخي ينهض غاضباً.. ويخرج من الحجرة وهو يهدر دون أن يسلم على الضيف.

كان يوسف يـعود للطائف للمـرة الأولى منذ غـادرها قبـل عام فقد عاد من جولتـه الليلية كعسـة بعد أن تـوصل لقرار حاسم لم يثنه عنه أحد فما أن أشرقت لليوم التالي شمس حتى كان «اللوري» الذي استـأجره، يشحن عفش بـيتـه.. وقبـل آذان الظـهـر صعدت عائلته صعد في إثرهم «اللوري» الذي انطلق عائداً بهم للديرة.. حيث ولد.. وحيث يأمل أن يموت.

لم يكن رفضه خلع الثوب الرث وارتداء الثوب الذي قدمناه له مقنعاً.. حتى بعد أن مضى يكرر بطريقة غامضة:

- الثوب حيلة يا مستورة.. والله حيلة.

بدا أن الهرم قد نال منه وهو ينهض متثاقلاً ليلحق بصلاة الجمعة في مسجد «ابن العباس» غير أن أمي أقسمت أن لا تتركه يمضي بتلك الحال.

حسمت موقفها قائلة:

- والله لو عرف أبو العيال انك طلعت من بيته بهذا الحال ما يخليني على ذمته ولا دقيقة واحدة.

جلس وهو يقول:

- حسبي الله عليك مرة.

صرخ بضيق موضحاً:

- قلنا حيلة يا سكون.

أدرك عدم قدرتها على الفهم.. فقال بما يشبه الهمس.

- أصلي الجمعة وأسلم على أهل السوق.. أنا عستهم.. حرست دكاكينهم ليل عمري كله.. وشوفيني رجعت أسلم وأعيد عليهم قبل الزحمة.

قالت بحيرة:

- طيب والقصد؟!

قال بحنق:

- مقبل علينا عيد يا أم السكون يمكن الله يفلك علينا بقرشين.

عندما شعر بعجزها.. صرخ فيها:

- تتمصنجي يا صباحة.

بلا وعي منه، وجد نفسه يقول لها، ما تحاشى قوله خلال سنوات غياب أبي:

- الرديء ترك في حلقك كوم عيال وفرك.

بدا أن أمي أسلمت قيادها له، فمضى يقول:

- اتكمكمي في عباتك وقومي.. امسكي طرف ثوبي والله كريم.. خلينا نسلم على أهل السوق.. أنا عستهم، لازم يعرفوني.

صمت لوهلة قصيرة أدرك خلالها أنه لامس العقل والقلب سألها بغتة وهو يشير لوجهه:

- سألتك يا الله.. ما تشوفي في وجهي هبهبة الجنوب.

قال منبهاً دون أن ينتظر ردها:

- ترى السوق زحمة بعد الصلاة.. وأنا مشغول عن صفحة وجهي يمكن يشوف الكشخة ويحن علينا.

بـــدريـــة الـــبـــشـــر

(السعودية) أصدرت مجموعتين قصصيتين: «نهاية اللعبة» (1992)، مساء الأربعاء (1994). مجموعتها الثالثة «حبة الهيل» تحت الطبع.

البئـر

عندما ماتت رفعة انطفأت الرغبات البشرية في صدور أهل قرية (الحزوم)، وبالذات في صدور نسائها، خبت نار الثأر المتقدة من رفعة، لأن المرء حين يموت يذوب حضوره البشري، ولا يهددنا بكونه الأجمل، أو الأفضل، أو الأقوى، بل يصبح كائناً ضعيفاً مثيراً للشفقة، لأنه يموت مثل كل البشر، وتصبح ذكراه خفيفة، شفافة، لأنه كف عن مزاحمتنا على هذه الأرض.

نساء القرية من رفيقات رفعة، لم يعدن يتذكرن غير لمعة عينيها المتوهجة بالحياة، وشقاوتها وحبها للمزاح، لم تعد نساء القرية تشتعل غضباً وغيرة، وهن يرين رفعة، حين تداهمها نوبات صرعها المسكونة بالجن، ولم يعد الرجال يفكرون بجسد رفعة، كذكرى قابلة للامتلاك، لأنها دخلت في خفة الغيب، وصارت ذكراها بعد أربعين يوماً من موتها تبعث انقباضاً في الروح غير مفسر وتحيل النسائم الباردة إلى لفح من سموم.

جاءت رفعة إلى قرية (الحزوم) في الرابعة عشرة من عمرها، لم تع بعد حيل النساء الماكرة، والغمز المستتر في حكاياتهن الماجنة، ولم تعد بعد فائدة الوصايا الذهبية التي تفتلها النساء في روشن (أم عامر)، والتي تثير مرحاً فياضاً بين النساء، مما يزيد من خجل رفعة ودهشتها الساذجة أمام ضحكهن.

راقبت (أم عبدالله) والدة زوجها، بحنان، خجل رفعة، وهي تتمدد كل ليلة عند طرف سجادتها، حين تصلي صلاة العشاء الأخيرة، وتدخل في نعاس

خفيف، تهش (أم عبدالله) نوم رفعة، طاردة إياها برفق نحو غرفة زوجها، مذكرة إياها أن الزوجات الجديدات، لا يليق بهن أن يتركن فراش الزوج فارغاً، دون عذر بيّن. إلا أن رفعة لم تكن تطلب أكثر من ذلك السكون عند سجادة (أم عبدالله) الذي يبعث في نفسها بعضاً من الطمأنينة، مثلما تجده عند والدتها في الليالي القديمة في قريتها، كانت وفعة تعاني من هجمات كابوس أسود، يأتيها كل ليلة عند أول غفوتها، فترى نفسها في وادي (الرمحية) تلقط عشبة (الحماض)، تضعها في وسط ثوبها، وغنماتها السبع يتفرقن خلف شجر الطلح والسرو ويقتلعن وردة (النفل) و(عشب الخباز) و(البقرا)، وأصوات رفيقاتها تتنامى إلى سمعها بالقرب منها، والجبل الصخري الطويل للعارض النجدي، يرجع صدى ضحكاتهن، كان الوادي الصخري قد جف ماؤه وتلون بطنه بعشب الربيع البري بين البنفسجي والأصفر والأبيض. رفعة تسمع صوت خفيف، لحصى يتدحرج ثم مايلبث الصوت أن يعلو، يبدو صوتاً لثوب عملاق طويل، يكنس الحصى، وفي اللحظة التي اقترب

الصوت عالياً من خلفها، وقبل أن تلتفت هبطت يد عملاقة، وقبضت على خاصرتها، هصرتها، وهي ترفعها للأعلى، ورفعة تختنق، تقوم رفعة من حلمها وحلقها قد آلمه صراخ مكتوم، لم يسمعه أحد، تقوم فزعة خجلى من زوجها الجديد وخائفة.

عندما جاء عبدالله لخطبتها لم يخبرها أحد لكنها سمعت أباها يتحدث بما يشبه الاعتذار لخالها أبو سلمان:

يا أبو سلمان ولدك سلمان في طريق علم طويل، وفي غربة والبنت جاءها نصيبها والعرس قسمة ونصيب.!

عندما عادت رفعة من درب بئر الماء وجدت أن خرافها قد جزت رقابها، وبقي دمها سائحاً على الأرض، سحبتها يد (مرزوقة) جاريتهم السوداء، أدخلتها الحمام، ودلكت شعرها بالحناء، وغسلت جلدها بالسدر، ومشطت شعرها بالزباد، والورد، ثم لفتها بعباءة أمها الطويلة، وأدخلتها غرفة والدتها، جلست (مرزوقة) السوداء تخبرها عن رحلة عمرها

الطويلة، وحب الرجال للعبث مع النساء الصغيرات الجاهلات، ومن أين يبدأون، بينما على الجاهلات الصغيرات أن يلزمن الصمت ولا يبدين أي مقاومة!. لم تفهم رفعة لماذا تحدثها مرزوقة عن مآسيها القديمة، وماذا عنّ لها اليوم، لتفتح هذه القصص، لم تدر رفعة أن هذه القصص ستصير حكمة عهدها الجديد، عهد غربتها، في قرية (الحزوم).

كان على رفعة أن تنسى (الرمحية) و(سلمان)، ورفيقاتها في الوادي، لتشفى من وجدها القديم، وليسهل عليها اعتياد أحاديث روشن (أم عامر) زوجة أمير (الحزوم)، ونكات أم فهاد السالم، فحديث النساء يداوي كل شيء، يغذي الأفواه بالخبز، ويغذي الروح بالبهجة، ويدفئها بتقاسم الأسرار. كبرت رفعة في العامين التاليين بسرعة، صار لها جسد أكبر، وروح أزهى من ذي قبل، صار لجسدها مطالب جديدة، تعلمت منها، أنها امرأة، ولها نظرة أخرى في الحياة، رتبت رفعة كل شيء من جديد على هوى روحها الجديدة، وضغطت روحها القديمة، لتهبط في بئر عميقة بلا قرار، ردمت حسراتها معها وجلست

روحـهـا الجـديـدة فـوق فـوهـة الـبـئـر، رتـبـت بـيـتـهـا، ورفيـقاتها وقـريتها، أسعد (عبدالله) ووالدته أن يريا رفعة تـتـغـيـر، وفسرا ذلك بـأنـهـا اعـتـادت، حيـاتـهـا الجديدة، وكسبت أم عبدالله، بذلك ابنة لها.

صارت رفعة فتنة الدرب إذا مشت، ورفيـقاتـهـا نـحو مزارع الـعـامـرية الـواسـعـة، يـسبـحن في بـركـتـهـا ويتسلقن شجرة (النبق)، ينفضن أغصانهـا، ويأكلن من ثمارها الحامضة بجوار الساقية الشمالية، وحين يجلبن الماء من البئر، تتعلق عيون الشباب المارين، برفعة وحدها دون النساء. وبقدر ما كانت رفعة تسعد رفيقاتها، برفقتهن إلا أنها توقظ في صدورهن عضة، غـيـر دامـيـة، يـحـرقـهـن الاقـتـراب مـنـهـا بـقـدر، مـا يسعدهن، ورفعة قادمة من تاريخ غامض، يجهلن سقطاتـهـا، ومكـامـن ضـعـفـهـا، أو مـعـرفـة صـغـيـرة ينتقصنها منها ويعايرنها بها، فتشفي بها غيرتهن، فهي ليست مثل نساء القرية تجمعهن قرابة الدم والنسب، وتعرف كل واحدة منهن نقيصة الأخرى، ومواطن الضعف في طفولتها أو في صباها فيتعايرن بها وينهش بعضهن حين تحين فرصة لذلك، لذا ظلت

رفعة بعيدة عن الهمز واللمز، فيما كانت كل واحدة منهن مرعى لنميمة طارئة أو سخرية دامية تنتهي بقبول صاحبتها أن هذ هو واقع الرفقة».

في اليوم الخامس عشر من شوال حين اكتمل القمر الأول بعد رمضان كان (نشمي) قد أعلن لأهل الحزوم، أن سيزوج ابنه (فالح) من ابنة عمه (جهير) وفي مساء ذلك اليوم اعتبر كل فرد في قرية الحزوم، ملزماً بواجب العون والمشاركة في الاحتفال. الكل ذهب ولم يبق أحد في بيته. في تلك الليلة، رقصت رفعة كما لم ترقص امرأة في (الحزوم) نقضت ظفائرها الرطبة برائحة الحناء والطيب، أسدلت غيمة من الشعر البني على وجهها، نفضت عن روحها تراب الوقت في دومة غناء السامري المهجور في روحها، جر الغناء غصون قلبها جراً، في غناء جماعي لفرقة الدق الدوسرية وهي تغني: (يا جر قلبي جرا لدنا لغصوني.. وغصون سدر جرها السيل جرا).

تأخرت رفعة ذلك المساء عن البيت، كان الليل حراً بها، فرشت (أم عبدالله) فراشها في الركن القصي من غرفة التنور ونامت. عندما دخلت رفعة

البيت، لم تفطن لمن كان يرصدها هبت نسائم باردة أطفأت حمى جسد رفعة الفائر ببهجة الرقص، وكشفت عن نحر رفعة اللامع من العرق الساخن، فاحت رائحة الورد والطيب، من شعر رفعة الرطب، نثرته خلف ظهرها وفتحت صدرها لتتبرد، مشت نحو شجرة السدرة، لتشرب من القربة، المعلقة في غصنها، كان هو واقفاً عند القربة أصابه العطش، فجاء ليشرب أيضاً، رآها وقع في عشقها لم يقاوم سحرها، فسكن في جسدها ترك رحلته الشمالية.

قالت أم عامر: دخل في جسدها فغشي عليها عند السدرة في آخر الليل. كان (بسم الله علينا وعليكم) مسلم من الجن قادم من اليمن، ذاهباً إلى الشام، قالت أم عامر: إن الجني يدخل المسلم حين يكون في أقصى حالاته إن كان فرحاً أو هلعاً وحزيناً، لذا يلزم المسلم أن يذكر اسم لله في كل حالاته ولا تأخذكم أرواحكم لمنتهاها فتشف وتضعف.

لم تعد رفعة كما كانت من قبل، وبعد أن سكن جسدها الجني، قالوا إن رفعة تغيرت كثيراً، صارت

امرأة نزقة، وصفراء اللون. قالت (أم عبدالله) إنها أعراض (الوحام)، الذي يداهم النساء الحوامل، لكن رفعة تحيض كل شهر وبطنها لم تنتفخ، وعبدالله كف منذ ذلك الحين عن الاقتراب منها كما يفعل الأزواج.

قالت أم عامر: إن الجني يصرعها كلما رأى عبدالله، وقالت أيضاً إن الجني يعذبه إن لا تكون له وحده.

جاءوا بمملوكهم الأسود (مشرف)، وضع رأس رفعة تحت إبطه الأسود، أخذ الجني ينفض جسد رفعة كما الريشة، هدده (مشرف) صائحاً به:

اخرج وإلا قتلتك برائحتي!!!.

تضحك أم سعود وتشرح لبناتها: «إن الجن بسم الله علينا وعليكن لا يحبون رائحة الإبط الأسود - ياالله في رجاك يا رحمان.!!

في اليوم التالي، وجدوا جسد رفعة طافحاً على وجه البئر، فعرفوا أن الجني قد كسر رقبة رفعة، ورمى بها في البئر، فالجن حين يضطرون لمغادرة الجسد

المسكون، لا يسمحون به لأحد من بعدهم، ربما لم يسامح الجني، العبد (مشرف)، الذي هدده بأن يقتله بالرائحة، فرمى بجسد رفعة له كخرقة بالية نكاية به.

حامت روح رفعة حول مجلس القرية، ثوبها الطويل، يكنس الأقوال التي دارت حولها، كما كنس العملاق الحصى في حلمها القديم، وقبل أن تقفز في البئر للمرة الأخيرة سمعت روح رفعة رفيقتها مزنة بنت فواز تحدث موضي زوجة أخيها فوق سطح دارهن، كما يفعلن في الأماسي الرطبة قائلة:

«هل تعرفين أن عبدالله هو من ذبح رفعة؟!!

«شهقت موضي!

اسكتي لا يسمعك أحد!

أقول لك إن من كسر رقبة رفعة ليس الجني بل عبدالله، رفعة يوم عرس ابن النشمي لم تعد للبيت لقد ذهبت يومها لملاقاة (سلمان) الذي عاد من الرياض عند البئر.. رفعة لم تنس (سلمان) ولو لم يأت هو لقرية (الحزوم) لذهبت هي إليه.

إن الجني الذي اختبأ عند السدرة، لم يكن غير

عبدالله، لقد رآها وهي تقابل سلمان، وعندما رأت عبدالله، واقفاً عند قربة الماء يفوح غضباً وكدراً، شعرت أنه عرف كل شيء قفز قلبها، ودخلت في غشاوة طويلة.! عبدالله لم يقتلها في ذلك اليوم تراجع، خاف من كلام الناس، والفضيحة التي سيتحدث الناس عنها وقتاً طويلاً، وحين رأى عبدالله رفعة بعد شهور من دوامته الشقية، بقرب البئر لوحدها، وهو يعرف أن رفعة، لم تعد زوجته كما في الماضي لكن لن يتركها (لسلمان) أيضاً، داهمها من الخلف، سمعت رفعة تدحرج الحصى تحت قدم عبدالله، لم تتمكن رفعة من الالتفات خلفها، في لحظة سريعة، قبض على رقبتها من الخلف، ضغط عليها بشدة حتى، غابت أنفاسها، وارتخى جسدها نحوه، ثم دفع جسدها إلى البئر.

دفعت (موضي) بيد (مزنة) قائلة:

ستخرفين قريباً يا مزنة، اذكري الله كلامك ينثر الدم في وجه الرجال، ضعي لسانك في فمك ونامي!

سمعت مزنة صوت حصى يتدحرج نهضت مزنة

على ركبتها لتطل من جدار السطح القريب شاهدت مزنة ضوء نجمة منحدر يومض عند رأس البئر، لمعت النجمة في عين مزنة ثم انطفأت، كان شيء ما يودعها.

عبدالحفيظ الشمري

من مواليد (1959) *(السعودية)، روائي. أصدر العديد من المجموعات القصصية منها: رحيل الكادحين* (1993)*، دفائن الأوهن تنمو* (1997)*، ضجر اليباس* (2001)*..*

الراعي الجسور

للراعي الدهيني هذه الأيام سحنة أشد شحوباً مما عهد به من قبل. لقد أصبح شارداً، حائراً.. متطيراً مفارقاً. لا يحسن الحديث، ولا يقوى الجلوس في مكان واحد. تنبعث من شغاف ذاته بين لحظة وأخرى أنه لاعجة.. لم يعد - فيما يبدو - ذلك الرعي الجسور؟!. أصيب بأمر خطير وغامض.. ما سر ذهوله؟ سؤال تناقلته الألسن حوله في فضاء (تلعة الحمض)..

صاح الرعاة به: ما بك؟. خذلهم عندما لم يجب، بل تجلد لإخفاء حزنه المفاجئ والغامض.. من ياترى يقيم حالته.. ويخرجه من الحزن كما يخرج الذئب من كمين غادر؟.. وحدها الأيام هي التي تقوى على استنطاقه، ونبش دفائنه الخبيئة.

الأمر المحير أن الدهيني يشير إلى الأشياء بذهول، ويختم المقولات النادرة والإجابات المقتضبة بقوله: (بكرة تشوفون..).. كاد أن يطرح أحد خصومه الحياديين أرضاً عندما قال له الأول: ألست الجسور.. لماذا لا تهجم على من يؤذيك وتفرك جبينه بالأرض.. فما كان من الدهيني إلا أن ازداد تطيراً وتبرماً: الأيام والليالي هي عدوي.. من يقتل الأيام والليالي يا ابن...؟! كف الغريم المجادل بعد أن تنبأ بجنون الراعي وصدق مزاعم الآخرين به.

يتهادى مع الرعاة خلف القطيع واجماً، ذاهلاً.. لم يشاكس أحداً كعادته.. بل إنه لم يكن بذلك الوعي الكامل بمن حوله.. حتى قاطعه أحدهم معيداً ديباجة سؤال سابق: أما أنت الجسور.. أين إقدامك؛ نزقك.. أهي علينا نحن أخلتك؛ أحبابك..؟!.

خرج الراعي من خباء عزلته لبرهة وامضة:

لم تكونوا يوماً أحبابي.. من قال إنكم صحبي. ثم عاود الحديث بشكل شخصي مقتضب لصديقه رويان: قل لهذا يقطع حبل وده المزعوم. غداً سيرى هذا الأخرق كيف تسمو جسارتي على التلاع جميعها. بعد برهة تجرأ رويان وحدَّق بعيني صديقه فلم يلمح أي أثر للدموع.

* * * * *

مع الغروب ساءت حالة الراعي. جانبه الرعاة ولزموا الحذر؛ إلا صديقه رويان الذي ظل متشبثاً به؛ بل إنه ذهب ليصحب الحكيم إليه للرقيا والنفث بوجهه، وعلى صدره لعل هذه الأرواح المؤذية تفر من جسده الناحل. لم يعبأ بمن حضر بل ظل مواظباً على وقار صمته في فراشه؛ مما حدا بصاحبه والحكيم أن ينهضا مبتعدين عنه يتهامسا بأمره:

ما به يا حكيم بلادنا؟ أتراه يحب؟ لا.. قلب الدهيني من حجر، هل لديه نية للثأر؟.. لا يبدو، هل افترسته الفاقة.. لا.. خلق راعياً فقيراً مثلكم.. أبه

مس أرضي أو سماوي.. هل خاتله الجن ولاذوا به.. لا.. لا، ما به إذن يا شيخنا؟ لا علم لي.. العلم عند علام الغيوب.

ولكي يخرج الشيخ من هذا المأزق زعم وهو يحرك سواكه في كل الاتجاهات في فمه مزمعاً الانصراف: الذهيني سيقتله الحقد.. حقد على من يا حكيم (تلعة الحمض)..؟!. حقد على (التلعة)، وعلينا، وعليكم معشر الرعاة؛ بل حتى على أهله الأولين.. الدهيني ولد راعياً لكن قلبه جسور.. يزمع التسيد، ويرنو إلى الأعالي. يقهر الخصوم، ويواجه المصائب بقلب قوي.. يخيف من يراه.. سيصارع الحقد، ولا علم لي بمن سينتصر.

أسر أحد الرعاة إلى رفاقه بملامح رؤيا منامه ليل البارحة إذ شاهد فيها الدهيني وهو يطير في الفضاء وبيده قذالة من شعر يبدو لرائيه أنه لأنثى.. لهجوا في خبائهم وعلى الضوء المنبعث من نار عشائهم؛ فيهم من هو متفائل وآخر متشائم. عصبة المتفائلين رويان وآخرين معه يؤكدون أنه مهموم

بترتيبات عرس يكابد معاناته، والمتشائمون يرون في رؤيا زميلهم نذير هم سيكابده هذا الراعي المأخوذ بأمر مصيبة كبيرة يخفي حقيقتها عمن حوله..

(ما بك؟) عبارة لا يجرؤ أحد على ترديدها.... لم يهزم المارد بعد!! (ما بك؟) باب موصد بحدة وبكبرياء رجل تنهشه وحوش الحالة الغامضة..

قبل نومه ودون مأكل أو مشرب نبس بصوت خافت لمن يقاسمه الخباء الصغير المعتم.. ذلك الذي لا يليق إلا بالرعاة: (رويان يا خوي) سألقنها درساً.. سترى هذه (التلعة) البغيضة أن جسارتي مازالت على خير مايرام.. (من هي يالغالي..؟): هي أم الشر.. أم الشؤم والمصائب.. أمنا التي ما برحنا الحقارة من أجلها.. هذه التي تجعلنا نسير خلف القطعان مثقلين بالوصايا والنعوت السمجة.

اقترب منه رويان عندما وجد الفرصة مواتية للتطفل على عالمه أو التخفيف من مصابه.. هاه يالغالي.. وش علمك على (تلعتنا) لا تريد الرعي..

لماذا؟ الله خلقنا رعيان.. الرعي مهو عيب يا خي.. هذا الحلال يا الدهيني..

أوى صديقه إلى فراشه غير بعيد عنه؛ فما كان من الرجلين إلا أن كفا عن الحديث فجأة، وأشاح كل واحد بوجهه عن الآخر لتتداخل روحيهما بعوالم باهتة وهامشية، لكن الدهيني ظل محافظاً على دفائنه المضمرة.

* * * * *

في صباح تلك الليلة التي بات بها الراعيان مؤرقين.. واحد يفتل خيوط حبائله الغامضة، وآخر أجهده السهر؛ إذ ظل طوال الليل يتظاهر بالنوم ليرقب حالة صديقه.. لاح نور الشمس جهورياً وصاهلاً.. ضج الرعاة في هذا الإصباح الاستثنائي. تداعوا بهلع أليم عندما رأوا جسد الدهيني يتدلى معلقاً بحبل عالق بعارضة الحظيرة المليئة بالأغنام.. منعهم رويان من الاقتراب فظلوا يرقبون الجثة المتدلية وهي تلوب الفضاء بشكل هش.

كز الرجال على أسنانهم لحظة أن رأوا الرجل

الجسور يعانق الموت.. جسد أيقظ جسارته هذا الصباح لتجعل القلب يكف عن نزغه وإقدامه.. لأول مرة يموت في (تلعة الحمض) شبه المقفرة راع على نحو كهذا.. قال حكيم الحمض وهو يحرك سواكه ويستدرك على الحضور: من يقلب الكتب والسير والحكايا سيجد أن سلالة الدهيني هنا وهناك بهم من مات غيلة على نحو ما ترون هنا.

الرياض 1423/6/5هـ

حبيب سروري

من مواليد (1956) (اليمن)، أكاديمي وروائي. صدرت له مجموعته القصصية (همسات حرى من مملكة الموتى).

شيءٌ ما يشبهُ الحُبّ

- 1 -

ثمة، بين وجهك القمحي المبلل بلون الورد الفاتح، وشعرك المكتظ غامض السواد، تضامن سري جلي...

ثمة، في بريق عينيك الشديدتي السواد أيضاً، عبقرية طافحة، آسرة جداً، وموسيقى لا أجد شبهاً لإيقاعها إلا في نغمات صوتك السائل العذب...

تعرفين، ونعرف جميعاً، أنك شهيدة تقاوم الموت، فراشة تطير فوق أشداق تماسيح، أغنية تصدح أمام قبيلة صماء، ممشوقة تتمخطر في ثكنة حربية...

تعرفين، ونعرف جميعاً، أنك تسيرين على درب....، وسط ألحان جنائزية كئيبة. خطيئتك: شموخك الناعم، إلهامك الدائم، وضَمَؤك العنيف للحرية! ألست وحدك إذن أضحية كلماتك الملهمة، وجمالك القاهر، وسموك الفطري على طقوس القطيع؟

تعرفين، ونعرف جميعاً، أنك ملكة بلا تاج! لأننا في دغل نهب عسكره التيجان، وطبلت لهم واجهات مدنية من الماهرين في مسح الأحذية، الذين لا يستطيعون النوم إذا لم يسكرهم اليقين بأنهم كتاكيت الأحزاب الحاكمة. يضمن لهم ذلك شراء كميات كبيرة من رباط العنق، وسيارات «الصالون»، وتلفزيونات عريضة في كل غرفة من غرف ڤيلاتهم الفارهة، ووجبات أمريكية يومية لأطفالهم الذين يدرسون في مدارس محصنة سعر رسومها أكثر من عشرة آلاف دولار في وطن لا يزيد راتبه المتوسط عن سبعين دولارا!

- 2 -

ثمة، أيتها الملكة المسروقة التاج، في الطرف الغربي من عدن، وراء جبل قلعة «صيرة» بالتحديد، في نقطة تلاقي واجهته الخلفية بالمحيط الهندي، رقعة صغيرة أحلم أن نمكث فيها ساعات طوال، نستند على إحدى صخورها القريبة جداً من نهايات الأمواج الهادئة الخفيفة. ينكسر الموج قرب أقدامنا بتواتر لذيذ جداً، تزيد لذته مع زيادة رتابته وأشيشه اللذين يغسلان فينا كل أدران الإرهاق والتعب.

نراقب أسراب النورس وهي تفر وتكر حولنا، تهف وترف، تفرح وتمرح في كل أنحاء الرقعة التي نجلس فيها... تجول أنظارنا طويلاً في نصف الفضاء الكوني المترامي أمامنا بين زرقتي السماء والبحر الناصعتين.

في أقصى نهايات أنظارنا، نحو اليسار، تقع سواحل أستراليا التي نكاد نلمح قطيعاً من الكنغر على مقربة منها. على اليمين، يلتوي شرق أفريقيا الذي نكاد نسمع ضجيج لغاته الساحلية اللذيذة.

وفي الأمام، لا شيء غير الأفق الناعس التي تحاول أنظارنا أن تنزلق خلفه، ملامسة كروية الأرض، لتهرول باتجاه تخوم السويد ومملكة النرويج.

تجلسين قُربي بهامتك الملوكية وشعرك التاجي. تفوح منك رائحة بخور عدني عارمة، تتخللها شذرات من عطور فرنسية فاخرة تتسرب من معتقلاتها كلما تنزل أصابعك قليلاً، أو عندما تحركين رأسك باتجاه ما...

أحكي أمامك كل سخافات الدنيا، وأمتع ما يفرزه عبث حياتنا من فكاهات مرعبة. أضحكك وأضحكك وأضحكك. أضحكك ساعات طوال حتى يسيل بريق عينيك غزيراً منهكاً من الثمالة. لعلي لا أبتغي غير إعادة الابتسامة التي غابت عن شفتيك الرقيقتين منذ أمد، أو ربما لم تلامسهما أبداً. لعلي لا أصبو لأكثر من بسمة رضىً على ثغرك الجميل، أيتها الملكة المسلوبة. أو ربما أبحث عن شيء آخر، شيء ما يشبه الحب، (أقصد، شيئاً ما أكبر من الود وأصغر من العشق). أو ربما أبحث في نهاية المطاف

عـن شيء آخر لا أعرفه بعد: أكبر من العشق، أكثر من العشق، أقوى من العشق، أفتك من العشق...

أغـيـب لحظات بـعدهـا ، لأبـحـث عـن «شـروخ» اصطادها على التو الصيادون القادمون بقواربهم نحو المدخل الأمامي لصيرة، حيث يرتص بائعو السمك، يقرفصون أمام مفارش مشحونة بألذ شروخ وأسماك الأرض، تفصلهم زنابيل صغيرة، حجارة يتكئون عليها أحياناً، وفوانيس زيتية يزمعون البدء بإيلاعها. أحمل شروخك للشواء في «موفي» «مخبازة» مجاورة، أحمل أيضاً «ربيساً» من فتات سمك القرش المقلي، كومة من خبز «الرشوش»، عصير ليمون طازج و«هريسة» لحجية من الصنف الذي تحيبنه.

أفرش كل ذلك أمامك فوق طاولة صغيرة بجوار الصخرة التي نتكئ عليها، بعد أن أضع إحدى أغاني فيروز التي تفضلينها في المسجلة المركوزة أسفل طرف الطاولة. أضع أمامي إذا سمحتي لي، وجبة بشوكين المفضلة: بضعة «درازن» من محارات

«اللبوستر» وما إليها من النوع الفاخر، أنوي أن أتناولها بتأنٍ طويل.

تنتهي حينها لحظة الغروب، تبتعد طيور النورس عن الصخور المجاورة في اتجاهات مجهولة، ويبدأ ذلك الظلام الفضي المهيب الذي يغمرني بالإيمان.

- 3 -

... عفواً، اعذريني أيتها الفاتنة الصغيرة! لعلي غير قادر على تحقيق ذلك الحلم، أو حتى مرافقتك إلى مشارف شواطئ صيرة! لأن ثمة عساكر حمر العيون كثيرون، بملابس مدنية، يجلسون في نفس تلك الرقعة التي اخترتها للاحتفال بك، يحبون التجمع هنالك، ولأخذ الصور التذكارية... غير أنهم لا يحبون كثيراً أن تقترب المرأة من تلك الشواطئ...

- 4 -

ثمة، أيتها الملكة الوردية ذات الشعر الفاحم، بعيداً عن «طور الباحة» و«حوض الأشراف»، بعيداً عن «سوق الملح» وأطراف «الممدارة»، بعيداً عن

الـصـور الـتـذكـاريـة لـعـسـاكـر سـواحـل صـيـرة...
كـاتـدرائيـات ومـسـاجـد بـهـيـة، مـتـنـزهـات وشـوارع
وشواطئ تغمرها الألحان البهيجة والشعر والمتعة،
يكتظ بها الجمال والهدوء والحب، وتخلو كلية من
ضوضاء العسكر.

ثمة، مرافئ مشحونة بالدفء والحرية والسفن
الجميلة.

ثمة، بعيداً عن ديدان حفر «الصافية» و«حافة
الدبع»، بعيداً عن أشلاء عشرات الكلاب المطحونة
على طول طريق السيارات بين صنعاء وعدن...
حدائق وقصور ومتاحف كثيرة أريد أن أراك تحدِّقين
فيها طويلاً.

ثمة، أيتها الشاعرة الرقيقة، مواضع كثيرة أريد
أن أراك تتسكعين فيها بجانبي: مرفأ «قاضي كوي»
في اسطنبول ومقاهيه الطليقة ذات المقاعد الواطئة،

مشارف «مونمارت» في باريس، أجراف منزوية في شواطئ «سانت مالو» و«پورِوس» و«طنجة» و«رأس الرجاء الصالح»، جبال جليدية مذهلة الجمال في أطراف بورتلاند في شمال غرب أمريكا، غابات مملوءة ببحيرات جميلة في شمال «تركو» بفنلندا، صخور ملونة في جبال «البتراء» نحت الأنباط في أغوارها مدناً ومآثر نادرة، طريق سيارات ريفي صاخب بين چيبور، حيث تمتد في الأعالي قصور الماردچا، وأجرا، حيث يتخلّد تاج محل، أو بالأحرى حيث يتخلّد العشق محفوراً في حجارة تاج محل، في عبقرية سنائه، في قصة غرامه، وفي العناق الخالد لضريحيه...

ثمة مقاهٍ متناثرة ارتادها بانتظام چان بول سارتر، سيمون دو بوفوار، بولينيير، كافكا، بوشكين، نجيب محفوظ، سلفادور دالي، بيكاسو، هيتشكوك، شارلي شابلن، چاك برل، چاك برانسنس... ستكونين سعيدة جداً باحتساء فنجان قهوة أو عصير مشمش في أحد مقاعدها. ثمة منازل عاش بها أراجون، شكسبير، كارل ماركس، ماري

كوري، أينشتاين، فيكتور هيجو، أرثور رامبو، أدونيس... ستكونين سعيدة جداً برؤية نفس ذلك الضوء وسماع نفس ذلك الصمت الذي ترعرعت أقلامهم في أكنافه.

ثمة كرنڤالات ملونة مثيرة في ريو دي چانيرو وتايتي، شوارع طويلة هائلة في طوكيو تكتظ بأحدث المنتجات الإلكترونية. ثمة أكشاك مملوءة بالكتب النادرة والصحف القديمة ترتص على طول نهر السين من الحي اللاتيني حتى متحف اللوڤر. ثمة مقاه رومانسية في أماكن شتى من كوكبنا الأزرق، يأتيها الفتيان بخطوات حالمة خفيفة، حاملين ورداً أرجوانية يقدمونها لمعشوقات جميلات يلبسن فساتين بلا أكمام طوال فصول السنة.

نعم ملكتي المخلوعة! ثمة عوالم كثيرة ترقص بها قهقهات مشبعة بالحلم والعشق والحرية، لا تمارس فيها .... عندما تنقطع الكهرباء فقط، لا تدخل فيها المرأة البحر مغمورة بطَنٍّ من العباءات، لا تتحدث فيها مع الرجل بحضور شهود

القبيلة، ولا تطرد من عشقها الزوجي عند الطلاق حاملة «بُقشها» وكراتينها ككلبة مجروحة طريدة...

ثمة عوالم كثيرة أحلم أن أستنشق رائحتك في أرجائها طويلاً.

أكتوبر 2000

سـلـوى أبـو مـديـن

(السعودية). مجموعتها الأولى تحت الإعداد. نشرت العديد من القصص في الصحف والمجلات

أحلام ممزقة

كان حلمها أن يكون لها بصمة في تاريخ الحياة، ومجد عريق تُذكر به.!

استطاعت بمهارة وذكاء جمع نقود معدنية واشترت بها لوحة خشبية وألواناً زيتية.. ووقفت أمام بحر ثائر متلاطم الأمواج، حاولت ريشتها أن تصور روعة احتضان الشمس للسحاب الأبيض.

ولكن وجدت محاولاتها باءت بالفشل الذريع

لأنها انتظرت تلك الفرصة والأحلام التي داعبتها منذ سنين لتصبح في عالم أضواء الشهرة. لم تكن أناملها تعتاد مهارة مسك الريشة والتلاعب بالألوان.!

وانتابها الحزن والألم وتقوقعت في حجرتها الصغيرة وهي تحمل هموماً مغلفة بمرارة اليأس.. وفي صباح اليوم التالي عاد الأمل إلى مجرى حياتها من جديد.. فأسرعت تخرج من حجرتها.. مهرولة وتقف أمام باب طويل. كانت مكتبة الحي مغلقة حين ذاك.. ولكنها أخذت تنتظر وبصيص الأمل يكبر معها.

في حين أخذ العامل يسرع بفتح أبواب المكتبة، وها هي دخلت، وأخذت تفتش بين أقلامها المتناثرة الملونة، وأوراقها الكثيرة، وفجأة شع وجهها بنور غير عادي، عندما أمسكت بقلم أزرق ووريقات قليلة بيضاء، وقدمت للعامل نقودها المعدنية، ثم خرجت راكضة..!

ثم تكن تعلم إلى أين ستقودها قدماها.. ولكن كل ما تشعر به أنها تريد أن يكون لها شأن آخر، ولكن... هذا ما غفلت عنه..!

أسرعت تسابق الريح وهي تقترب من ذاك الشاطئ ذي الرمال الذهبية، وأمواجه البالغة الزرقة، اقتربت منه.. كانت أمواج البحر حين ذاك ترتطم بها فيرسل رذاذها المتناثر على وجهها تارة وعلى وريقاتها البيضاء التي أمسكت بها، أخذت تنظر إلى الأفق البعيد، وكأنها تلوح له.

مدت ببصرها إلى زرقة البحر وصفاء السماء وهمت بكتابة حروف، وحاولت أن تنسج منها كلمات لعل الحظ يحالفها لتكتب حكايا من وحي الخيال.. في بادئ الأمر اعتقدت أن الأمور ستساعدها.. ولكن خذلتها للمرة الثانية، وانسفحت دمعة وهي تنظر إلى المدى البعيد. وأخرجت زفرة طويلة من صدرها المتعب وألقت بورقها وقلمها في عرض البحر ليبتلعه، ويبتلع معه أحلامها.

عادت إلى منزلها بخطى متثاقلة، وأحلام منكسرة، في لحظات سكونها الحزينة، وهي تقبض على وسادتها بكلتا يديها الصغيرتين.. سمعت قرعات خفيفة على بابها.. فكان ساعي البريد الذي

قدم لها خطاباً مغلفاً.. عندها لمعت عيناها فرحاً، وأمسكت بالخطاب وفتحته.. ولكنها لمحت سطوراً متوازية بلون أسود كادت أن تقرأ حروفه، لكنها لم تفلح في فك رموز كلماته المتوالية، بيد أن هناك أملاً يلوح لها أن ثمة فرجاً حمله خطاب ساعي البريد.

سرقت الفرحة رقادها، وانتظرت تباشير الصباح.. وأسرعت تركض نحو المكتبة.. وانتظرت وصول العامل.. شعرت عندها أن الزمن توقف فجأة في تأخر وصول عامل المكتبة.. وما أن رأته مقبلاً حتى ألقت تحيتها برقتها المعهودة.!

وسلمته مظروفها قائلة: - اقرأ.. من فضلك..!

أمسك العامل بالخطاب، ونظر إليها وأومأ برأسه. فهمت عندها أنه أمي لا يستطيع القراءة..!

عادت الكرة تبحث من جديد على قلم ملون وأوراق وردية، علها تجد في بحثها ملامح السعادة التي تنتظرها قريباً.!

وخرجت.. بآمال عريضة تحملها في صدرها. كتبت أول كلماتها في ورقتها الأولى، وشعرت حينها

بسعادة بالغة، فقد يتبدل مجرى حياتها، وأنهت صفحاتها بتعابير قصيرة ترمي إلى معان بعيدة..!

حملت حروفها المنسوجة بمشاعر الفرحة، وقدمت أوراقها فوق هاجس المجد الذي أخذ ينتاب حياتها في كل حين.

كانت الفتاة قد هجرت أروقة الكتابة منذ أمد بعيد.. ولكن الحنين إلى الشهرة أكسبها شجاعة وإقدام حتى باتت تقضي ليلها وسط أوراق متناثرة.. فوق وسادتها الصغيرة، التي تخلد للنوم فوقها، وتغمرها فرحة لم تعتد عليها من قبل.!

حتى جف حبر قلمها، حملت الصغيرة أوراقها بقلب تعلوه ضربات.. وقدمته إلى دائرة العمل الإبداعي في مدينتها..!

وسرعان ما احتضنتها الشهرة وألقت الأضواء عليها.. وأخذت تخطو خطوات واثقة نحو المجد.. الذي طالما حلمت به. وأصبحت ذات شأن هام.. وحققت ذاك المجد الذي راودها في الحقيقة والخيال.!

أسرعت اللحظات. وأخذت الشمس تودع المكان

وتعـانق موج البحر المتلاطم وقرصها يختفي شيئاً فشيئاً.

أخذت تنظر لمغيب الشمس الذي عكس لوناً قرمزياً على صفحات موج البحر الثائر، وهي تقبض بيديها على وريقات بيضاء، وقلم حبر أزرق وسط دموع منهمرة، وأحلام ممزقة.

محمد الدخيل

من مواليد 1967 (السعودية). نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

البصقة

- ماااااء   ماااااء

فوجئ بهذا الصوت الغريب.. كان يظن أن الأغنام لا يسمح لها بدخول المدارس عادة، لكنه أقنع نفسه: «حسناً.. ربما كان لهذه الماعز بالذات واسطة»! واصل شرحه.. بعد قليل عاد الصوت أقوى مما كان.. جال ببصره في وجوه الأربعين طالباً المكدسين أمامه في غرفة لا تتسع حتى لأنفاسهم.. أحدهم كان يعبث

بأنفه.. تجاهله واتجه صوب الجهة التي جاء منها الصوت.. صوب نظره نحو الطالب الذي ظنه مصدر الصوت.. وبَّخه ببعض الكلمات، لكن الطالب أقسم أنه لم يكن مصدر ذلك الصوت.

- ولكن من مصدره إذاً؟

عاد الطالب ليقسم من جديد أنه ليس هو وأشار إلى باب الفصل القريب من كل منهما موضحاً الصورة لمعلمه:

- أحدهم كان يفتح الباب قليلاً ثم يدخل رأسه ويصدر الصوت ثم يتراجع.

فتح الباب.. وجد مجموعة من الطلاب يقفون خارج فصلهم.. ربما كان معلمهم قد أخرجهم من الفصل لعدم قدرته على احتمال مشاغباتهم.

- هل رأيتم الطالب الذي كان يفتح الباب ويصدر الصوت؟

أجابوا وقد علت وجوههم ابتسامة خبث:

- كلا.. لم نر أحداً.

كان يعرف أنه واحد منهم، لكنه لم يكن راغباً الدخول في مشكلة جانبية تشغله عن درسه.

عاد إلى الفصل وهو يهز رأسه ويحوقل.. كان الطلاب في حالة من الهرج والضحك.. حتى النائم منهم كان قد استيقظ.. بدأ يحاول تجميع خيوط اهتمامهم، وشدهم إليه ليعود إلى درسه مجدداً.. بمجرد أن بدأ يشرح عاد الصوت من جديد.. صوب نظره نحو الباب الذي كان قد بدأ يعاود الانغلاق.. لم يكن من الممكن تجاهل الصوت والاستمرار في الدرس، فقد كان أنظار الطلاب تتجه نحو الباب ثم تعاود النظر إليه وكأنهم ينتظرون ما سيفعل.

اتجه مسرعاً نحو الباب.. وجد أحدهم بالقرب منه.. توجه إليه بالتوبيخ، ثم أخبر أحد الإداريين الذي كان يمر صدفة بالقرب منهما بما حدث وسط إنكار الطالب وأيمانه..

أشار الإداري للطالب أن يذهب بعيداً، ثم همس في أذنه:

- (مشكلتك يا أستاذ أنك تريد وضعاً مثالياً.. مَشِ الأمور.. لا تدقق كثيراً).

علت الدهشة حاجبيته، لكنه لم يرد.. دخل الفصل، وعاد يحاول مجدداً إحياء ما مات من درسه.. نظر في وجوه طلابه.. كان النوم قد بدأ يعاود الهبوط على الكثير من الوجوه المغتسلة بالكآبة أمامه، بعدما أيقظهم للحظات ذلك الموقف الطريف!

- هه.. من يقول لي كيف يجمع الاسم الثلاثي ساكن الوسط جمعاً مؤنثاً سالماً إذا كان الحرف الأول منه مكسوراً؟

في نهاية اليوم الدراسي.. حين خرج من المدرسة.. كان الزجاج الأمامي لسيارته مطلخاً بالطين والبصقات.. أما النافذة الزجاجية القريبة من موقع السائق، على يساره، فكانت تستقر في وسطها بصفة كبيرة صفراء تميل إلى اللون الأخضر.. تلفَّت يميناً ويساراً..

لم ير أحد حوله.. طأطأ برأسه.. فتح باب سيارته وركب.

اتجه إلى بيته.. كان شعوره بالانكسار وهو يسير بسيارته بين الطلاب والمعلمين متمنياً أن لا ينظر أحدهم إلى زجاج سيارته أكبر مما يستطيع احتماله.. طوال الطريق ظل يتحاشى النظر إلى البصقة المستقرة على زجاج سيارته قريباً من خده الأيسر..

حين وصل إلى بيته.. أوقف سيارته.. أخرج حزمة من المناديل.. بدأ بإزالة الطين من الزجاج الأمامي لسيارته أولاً، ثم وضع بعض المناديل فوق البصقة وأخذ يحاول إزالتها.

حين دخل البيت.. شاهد طعام الغداء قد وضعته زوجته على المائدة.. تحركت بعض الثعابين في جوفه.. تصاعدت إلى أعلى.. اتجه مباشرة إلى الحمام.. دفع ابنه الصغير الذي تعلق بأذياله بعيداً.. أغلق الباب بعنف، وبدأ يتقيأ.

فـــــارس الـهـمـزانـي

من مواليد 1978 (السعودية). نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات. مجموعته الأولى تحت الطبع.

عطش

فتح نافذته المطلة على أنهار الرمال اللؤلؤية.. يترقب الرياح بعيون بلهاء مستقبلاً غموضاً يلهث قادماً من الشمال.. ربما الأمطار وربما الأسفار.. هي السماء تنتظر هذه الأيام بلهفة العاشق وبسرعة البارق؛ سحابة بيضاء تكسب طعم الحنان برائحة الحرمان!

.. هناك بين ثنيات الأمل.. خرج من كهف

مـهجور ممتطياً حزنـه؛ راكباً همه على حصان شوقه، بلجام صمته!

قائلاً: جئتكم!

محطماً أعاصير الخضوع؛ كاسراً تهم الجوع؛ مطفئاً إنارة الشموع.

يستجوب الأرض بأسئلة مبهمة خارجة عن دائرة الحلول.. تجمع بين البراءة العذبة؛ والحنين الشجي.. يقلب بين الحين والآخر شتاتاً متبعثراً نموذجاً للمتبلدين الفارغين.. يعرف أن السماء لن تمطر ذهباً، ولكن قد تمطر شيئاً آخر لا يعرفه في زمن الجفاف! يسايره العطش في جوف الأنهار، وبين البحار، وتحت الأمطار!

ينتظر حناناً تسكبه السماء. نيزكاً ملتهباً! يفتت الوعود؛ يمحق القيود؛ يذيب عقم الجمود!

بعيداً عن الواقع سحب بساط مدخل بيته الطيني ليرحل قريباً.. يريد رؤية النعيم عن كثب؛ ليرى السعادة بوضوح الشمس.. توقف عند بقعة

صحراوية تحيط بها الزهور والأشجار.. تلفت ودخل بحذر.. صوت قدميه يبدو كمقطوعة غنائية.. سقط نظره على وردة تفوح أروع الروائح.. تجذب الولهان بتقاسيم الألوان..

تدور حولها نحلة.. لا تقربها أبداً! وتمتص رحيقها من خبز يابس مفتت تكدست عليه أكوام النمل الأخضر!

تبحر به الرياح مجددة سيرها نحو قافلة الجنون.. تحط رحالها على شاطئ من أحلام في جزيرة الأوهام؛ وهو يقرأ تراتيل الكتمان.. يحمل مركب شعاره سيفان مغروسان في قلب ينزف دماً بلا لون!

عله يجد ما يريد.. في نشوته العارمة مرت سحابة سوداء تحمل الرعب في طياتها.. ارتعدت وبرقت وكشرت عن أنيابها بقسوة همجية.. تترقب خطواته الوحشية عمياء.. دمرت متعته بالورود اليانعة وهي تسحقها مفجرة عروقها الحريرية.. وهي الزهرة التي تطلب من قاطفها يداً حانية تعاملها برقة الأطفال.. لا يعرف لماذا هو محروم.. حتى من النظر إلى ساعة معصمه!

أغلق نافذته بعد أن أصابته قشعريرة شتاء يناير ابنة العواصف والأمطار المتسلطة.. استلقى على سريره الحديدي يستعرض جزءاً من ذكرياته الحميمة.. علها تزيل كآبته؛ تدفن بؤسه.. فجأة.. ظهرت سحابة سوداء في سقف غرفته!

وفـــــاء الـعــمـيـــر

(السـعـوديـة). نـشـرت العديد من القصص في الصحف والمجلات.

مكابدة

إكليل ورد يضيء في عيني الفجر.. كان ذلك يعني حتماً أنني لا أفتر عن البحث حولي أدور كعصفور يخترق الأسوار مرغماً بمنقاره الصغير.. أضرب قاعدة الطاولة بإصبعي أشعر أن ثمة حيرة تخفق في صدري.. أتوه داخل أحداقي.. لا شيء يهم..

هذه النسمات التي تدثر حنيني الخافت تنسحب

بهدوء وهي تلمح شفق حزن بدائي يعرّي مدائن الفرح بقسوة كئيبة.. أنسل إلى كتابي.. أفتح صفحاته.. وأدس رأسي الصغير.. تقفز عيناي فوق السطور لكنني لا أعرف ما تحتويه.. لا أفكار الآن تقرأ ما في عقلي، لا أفكار تشغلني.. ألم يقل أنني تافهة.. وأن لا فكرة جريئة حرة تنبعث من خيالي.. ألم يتحدث منذ قليل كملك متوّج على عرش الواقعية المضنية..

ألم ينظر إلي بسخرية وأنا أتهيأ لموعدي عند الخياطة.. ألم تفتر شفتاه عن ابتسامة منطفئة وهو يتجاوزني إلى الخارج وقد ترك في المكان رائحة كلماته الميتة..

ماذا يبغي مني أن أفعل حقاً؟ وهذا الكتاب الذي ترتقي صفحاته المساحات الفارغة من رأسي ينبئني بأن الحياة لا تحتمل فكرة ساذجة يكوّنها عني دون تحفظ كما لو كنت طفلة لاهية.. حتى الأطفال لديهم ما يجعلهم رائعين في وقت ما.

أرمي بالكتاب جانباً.. لا يجب أن آبه

بـكـلـمـاتـه.. لا يمكـن أن أعـول كـثـيـراً عـلـى أفـكـاره المتحاملة وهو ما هو؟!.. لم أره منذ مدة طويلة يطالع شيئاً مهماً سوى الصفحة الرياضية التي ينكب عليها تماماً كما لو كان سيقدّم فيها اختباراً مصيرياً.

وما هي تلك الأفكار التي يتحدث حولها وقد جعل منها مقياساً لثقافتي الزائلة!!

إنـه يـتـحـدث فـي تـعـاظـم عـن المبـادئ الـعـامـة للاقتصاد العالمي.. ياله من موضوع كئيب ولا طائل من ورائه.. فما لنا واقتصاد العالم ونحن نعيش في شقـة مـسـتـأجـرة.. ونـركـب سـيـارة نـسـدد ثـمـنـهـا بـالـتـقـسـيـط.. راتـبـنـا لا يـصـمـد إلـى نـهـايـة الـشـهـر، وأنتظر دوري لاستلام أموال الجمعية من أجل تأثيث الشقة!!.. أنظر إليه وأنا أتنهد في صمت محرق.. وأبتسم له مرغمة فهذا يشعره بالفخر وبأن كلماته لها تـأثـيـر كـبـيـر عـلـى تـغـيـيـر قـنـاعـاتـي.. كـيـف يمكـنـه أن ينسى؟

استرساله في الحديث حول هذا الموضوع بالذات يجلب لي الكثير من الهم والغم.

ويتزايد شعوري بوطأة الحياة علينا.. بل إنني أحياناً أنظر إليه تلك النظرة التي تحمل في طياتها شعوراً خفياً بالندم لزواجي من إنسان معدم!!

في ذاك المساء عندما كنا جالسين أمام شاشة التلفاز نطالع برنامج مسابقات ملكة جمال العالم.. توقف هازئاً عند ملامح جسدي وراح يتحدث حول مقاييس الجمال عند المرأة.. ألهبتني نظراته غضباً وحنقاً.. انتظرت حتى انتهى ثم رحت أذكر مقاييس الجمال عند الرجال وأنا أغوص بنظرتي الساخرة في كرشه المنتفخ ككيس ضخم معبأ حتى آخره بأواني الرز الممتلئة والتي لا يرضى له بديلاً ثم تزحلقت نظراتي على صلعته اللامعة بتهكم قال وهو يتحاشى نظراتي «الرجل ما يعيبه غير جيبه» أجبته وأنا أفكر في جيبه الخاوي». والمرأة ما يعيبها إلا أخلاقها.. ألا تراني أصرف وقتي كله في القيام بشؤون منزلك ورعايتك والعناية بأطفالك؟ كل هذا لا يشكل لديك أدنى أهمية حتى تعمد إلى مقارنتي بفتيات تشاهدهن في التلفاز لم يقفن لحظة واحدة في مطبخك! أنت ناكر للمعروف وذلك شأن الرجال

جميعاً ، هزئ من كلماتي غير أنه لم يظهر ذلك علانية وارتخت ذراعه حول عنقي في ود وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ليهدئني لكنني لم أهدأ لأنني شعرت أن يتعمد إذلالي وإهانتي.. وأن حركته تلك إنما كانت تأكيداً لفكرته عني من أنني سطحية التفكير ولا أحمل أدنى مستوى من الثقافة!!

أتناول الكتاب من فوق الطاولة وأتصفحه بامتعاض.. اقترب موعد عودته من سهرة أصدقائه وسيبدأ في مناكدتي.. عليّ أن أكون محاورة جيدة وألا أتركه ينال من تفكيري هذه المرة!!

عبدالرحمن
ابن سلطان
السلطان

من مواليد 1979 (السعودية).
نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

يوم كفن متحرك

4.40 فجراً.

بالرغم من النافذة المفتوحة على مصراعيها والمروحة الكهربائية التي تعمل بأقصى طاقتها؛ إلا أن أمواجًا من حرارة حارقة تسري في عروقي الضيقة, كما أن الغدد العرقية تعمل بكل جهد ونشاط ,حالة من القهم الذي أعيش لاتزال ترزح بثقلها عليّ. وأنا ممزق ومرّمي في فراشي الوثير كخرقة بالية، صرت

أكره هذا المسمى بـ(النوم)!!.... متى تطلع الشمس لتنقذني من هذا المأزق الصعب.

6,59 صباحاً.

لم أصلّ الفجر. خيوط ذهبية تتسلل إلى غرفتي بدون إذني، أتذكر الليلة الماضية فأشعر برغبة بالبكاء الحقيقي ولكنني لا أستطيع!. قمت وكل

عن العمل !!. أجلس والهدوء يسبقني، أستقبل حديثه الجاف ببرود اعتدت عليه.

- صباح الخير.

- صباح الن... النور.

- هل نمت جيداً ؟

- نوعاً ما.

- لدينا عمل كثير اليوم.

- لا مشكلة...... ولكن يجب أن أزور الوالد في المستشفى.

- لن تحتاج إلى ذلك.

- لماذا.... هل نقل إلى مكان آخر؟

- ..... نقلته الملائكة إلى مثواه الأخير.

- .....

- توفي فجر اليوم.

- ......

12,50 ظهراً

الأنفاس تتلاهث والعرق يزداد لزوجة، أنظار حادة تتقاطع وأرواح هائمة تراقب الوضع من بعيد.

لم أستطع تحمل هذا الوضع الشاذ ، سحابة من كآبة كاذبة تخيم فوق رؤوسنا المكسوة بالشعر الأسود فقط. الكل ينتظر الفرصة لينقض على الفريسة، لم أستطع تصور أن لكل شيء نهاية. إن أبي ذلك الجبار المرعب سوف يوارى الثرى بعد قليل، اقترب مني خالي سعد ثم همس في أذني اليسرى:

- لابد أن نسوي مشاكل الدائنين.

- ماذا!!.

- ألم تسمع مشاكل الدائنين.

- لايزال كفن والدي لم يُحل..... أرجوك ياخالي.... فقط لذكرى أمي......

- ..... إنهم يتشاورون.

- دعهم!!.

رائحة (اللِبن) ذات نكهة مميزة، فهي تنفض

الغبار عن الذاكرة المهملة وتذكرك بأن الإنسان مهما ارتقى وتطور فسوف يعود يوماً إلى هذه الأرض إلى هذا التراب.

ها هو الجسد الذي نزعت منه الروح يُرفع، يقفز أخي الأكبر يوسف و معه ابنه محمد - الذي سميّ على اسم والدي - يتلقف الكفن الأبيض، يضعه باللحد المظلم، يحل جزءاً منه، يوجه وجه أبي نحو القبلة، حركات لا إرادية تحكم انتظام الموقف، يبدءون برصف اللبن وإغلاق الفجوات بشيء من الطين اللزج، يخرجون من القبر المريع، بدأ الناس بهل التراب، ذُرفت دمعة من أخي الأوسط خالد ولكن لا أدري هل هي على وفاة والدي أم على زوال الامتيازات التي كان يتمتع بها فهو المدير التنفيذي لمؤسستنا الكبرى منذ أن تقاعد الوالد المبجل - إجباريًا - بعد الجلطة التي عصفت به قبل أربع سنوات.

ماذا يخبئ القدر لنا نحن أبناء أبي يوسف العظيم؟. يبدو أن الحياة كما قيل (قديمًا يوم لك...... وأيام عليك)، كما أن الساعات القادمة سوف تكون حبلى بالمفاجآت.

1,13 ظهراً.

ألقيت بجسمي المنهك جسديًا والجريح نفسيًا داخل سيارة أجرة كانت تنتظر شخص ما دخل المقبرة ولم يخرج منها.

- البحر....

- سوف يكلفك مبلغاً كبيراً..... البحر بعـ...... بعيد.

- لا يهم.

1,29 ظهراً

ما أوسع البحر وما أضيق الأفق، أتمدد على صخرة ملساء، قطرات من حزن حامض تتسرب من بين انحناءات جسدي المثقوب برصاص من القهر والذل المزدوج، يتجسد أمامي والدي الطاغوت كياناً من كهارب الضوء الفاقعة و المتموجة...... أبتعد عنه..... أهرب..... ألم يكفيه ذاك الجحيم الذي كنا نعيش فيه..... خمسة وعشرون عاماً من الضيم المتواصل....

- أنتم مجرد كائنات ناطقة..... ومن الدرجة الثانية أيضاً.

دومًا كنت وحيداً، مشرد الروح والمعنى، أعيش بلا رفقاء، أسير بلا أصدقاء.... لم أجد يومًا منْ يمسح أحزاني ويكفكف دموعي.... حتى دراستي الجامعية لم أفلح بها..... كنا نعيش وسط سجن بلا قضبان.... سجن من وهم كبير..... لا حياة اجتماعية لنا.... بكل بساطة لا شيء لنا.... كنت دائمًا شابًا مطيعًا للأوامر ومثالاً ممتازاً للابن البار الخانع للجميع..... ولكن: ما الفائدة..... صرت كالدمية الرخيصة لا تملك حق تقرير المصير!!

أدور بعصبية واضحة للعيان أمام هذا البحر الفتان كما يدور حيوان كاسر سقط فجأة في فخ مميت، أضحك، أبكي، أئن.....

رائحة نفاذة تخترق جدار الصمت الثقيل، رائحة كريهة لم أتبين مصدرها، ولم أدرك حقيقتها إلا متأخراً، أتأمل محيطيّ الضيق وقد تحولت إلى هيكل

البحر ولكنني أحس بضيق في التنفس، ريح تنطلق جهة الشمال.... ريح متوحشة يصاحبها مطرٌ يطرد الجمهور القليل عن الرصيف الصخري. قررت العودة إلى المنزل فالشمس لم يعد لها مكان في السماء.

7.00 مساءً.

- ترن ترن.

أقرع الجرس مرات عديدة، أضرب بكلتا يديّ ولكن لا أحد يرد، أرفس الباب بقوة لا داعي لها.

أليست تلك (مها)؟ - أختي الصغيرة - أرهف سمعي فألتقط صوت مواء ينطلق من حنجرتها، وأبصر دموعها البلورية تتحدر على خديها تحدر القطر على أوراق الزهر، وقد شحب لونها وانطفأ شعاع عينيها، إنها لم تبرح مكانها منذ علمت بالخبر!!. حاولت تجاهل وجودها فمررت من أمامها بدون أن أنطق بحرف واحد، سرت ابتسامة صفراء على شفتيها، لن أشعر بتأنيب الضمير، مجرد

وخزات قليلة سوف تنسى بعد حين، لم نكن سوى مجرد أخوة أعداء!!.

ألمح صورة الوالد تقف شامخة وسط هذه القاعة المثخنة بالجراح..... شعور بالغثيان ينتابني..... أتذكر ذهابه للحج قبل سنوات طويلة.... ملتفًا بملابس الإحرام البيضاء..... حج ولم يعطِ كل ذي حق حقه!!..... ألم يكن يشعر بثقل الكفن الذي يحمله....؟ لا أدري!!.

7.02 مساءً.

لم أكن أجرؤ على الاقتراب منها قبل ساعات قليلة والآن.... أقتحمها وقد خلعت ثوب الخوف الذليل .... أدخل غرفة والدي العتيقة، الباب مفتوح بشكل يثير الأسئلة!!. ما أجملها علبة من الأسمنت المطلي بالدهان الأصفر الباهت، قبرٌ حضاري، قبر بشباك وباب وجهاز تكييف وشيء من الإضاءة الكلاسيكية، رائحة الحجرة غير المألوفة تنشر أطيافًا من قلقٍ بشعٍ ووحشيٍ في آن واحد..... الأثاث

الخشبي القديم يرفض وجودي هنا..... لماذا أشعر بالانقباض وسط هذا السنديان الجنائزي؟. أين آلام النزع الأخير وشدائده؟. أم أنها صُفرة الموت هي من يسيطر على هذا السرير الشاغر؟. هنا توقف والدي عن الحركة قبل أربع سنوات!!.

خرجت من الغرفة أجر أذيالاً من الهزيمة الوقحة و إذ بأخي خالد قد انضم إلى جوقة البكاء الدميم. أخاطبهم بجسارة لطالما افتقدتها:

- هل مرّ السيد (موت) من هنا؟

- .....

لم يلتفت أحدٌ منهما، أكمل حديثي ذي القطب الواحد:

- يبدو أن أعوانه قد تكاثروا في الفترة الأخيرة..... أشفق على حفار القبور..... فلقد أرهق كثيراً!!.

يبدو أنني متعب جداً، لابد أن أخلد للنوم، أتسلل إلى غرفتي.... باردة رطبة كما عهدتها..... ها قد توقف قطار الليل البهيم في محطته الأخيرة.

لابد أن يواصل المسيرة، لم يعد له مكان هنا، ضحكت بشدة عندما علمت بأن رصيفه كان بركة من الدم الإنساني الحار وأنا الراكب الوحيد!!.تمددت لأنام، لا أشعر بالنعاس ولكنني أحس بجبل من الإجهاد العقلي سوف ينهار فوق جسدي الوضيع إن لم أنم الليلة!!

10,10 ليلاً.

استيقظت فجأة تعبًا، أكثر تعبًا مما لو كنت أحفر قبوراً لأهل هذا المنزل المشؤوم، ظلمة فحمية تتسكع بين جدران غرفتي الواسعة نوعًا ما، أقوم والهيجان يسبقني كغول أسطوري انقرض منذ زمن طويل..... أكسر تلك التحفة النادرة..... أرمي..... أقذف زجاج نافذتي... ها قد انتصرت في معركتي الدونكيشوتية!!

أتسلل من غرفتي - أرض معركتي الكبرى - وقد تهلل وجهي وانبسطت أساريري. هل هو الإحساس بسلام ما بعد الألم أم مجرد شعور مؤقت؟

أبـصـر أخـي يـوسـف وقـد انـتـصـب فـي مـنـتـصـف قاعـة الطعـام وعـرقٌ غـزيـرٌ ينـزف بشـدة مـن مسـام وجهـه المرهق، فتنقلب سحنتي وتتغير ملامحي.

- أين كنت؟؟

أتجـاهـل السـؤال المتـوقـع، فـأقـلـب نظـري فـي التحف التي تصطف بكل شموخ وعزة بين أطراف هذه الحجرة الفارهه.

- أكرر السؤال .... أين كنت؟

- .... كنت هنا.

- .... المهـم.... المحـامـي ينـتـظـرنـا غـداً بـعـد صـلاة الظهر لكي نبدأ في تصفية التركة.

- هكذا وبكل بساطة.

- ليذهب كلٌ منا في طريقة!.... تصبح على خير.

- .... وما طريقي أنا؟

أصب جام غضبي على قوقعة الزمن التي تمضي ولا تعود.

4,39 فجر اليوم التالي.

أدركت أنني جسدٌ بلا روح. أنني عقلٌ بلا قلب، أخرجت ورقة مالية خضراء مزقتها ثم بصقت عليها بحركة مسرحية تلفت الانتباه، اغرورقت عينيّ بدمع حزين مالح، كم كنت ساذجًا فأنا ميت منذ أمد طويل جداً، لم أكن سوى كفنٍ متحرك بلا خيوط!!.

جـمـعـة فـيـاض الـعـنـزي

من مواليد 1975م (السعودية). نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

امرأة الأعمى

لم تهدأ حركتها منذ الصباح، تطارد الدجاج والماعز، تملأ الزير بالماء الذي تغرفه من خزان كبير كان في الأصل لسيارة صهريج صغيرة، وتدخل المطبخ لتخرج وهي تحمل الآنية فتلقي بها في زاوية الفناء وبعد أن تجلس على صندوق خشبي صغير تشرع في غسل الأطباق، وتدوي جلجلة الأواني المعدنية وهي تغسلها بعصبية.. تظل تعمل وكأنها آلة جبارة وسريعة.

وهي مع ذلك لا تكف عن الصراخ، تصرخ على الدجاجة التي لم تضع بيضاً منذ أيام، وتشتم الديك الذي يقفز برعونة على الأطباق ويبعثرها في التراب، لكن الحظ الأوفر من الشتائم والصراخ دائماً من نصيب الرجل الهزيل نصف العجوز الذي يجلس على حصير أمام الكوخ مسنداً ظهره إلى جداره، والمرأة تتأسف على حظها العاثر الذي جعلها زوجته وتطلب منه بعصبية أن يظل هادئاً في مكانه ولا يتجول بعصاه في أنحاء مملكتها الصغيرة لأنه يعطلها عن عملها ويفسد ما تشقى بإصلاحه، أما هو فيتلقى صراخها بابتسامة هزيلة ماكرة لا تكاد تفارق وجهه الصغير المحاط بغابة من الشعر الأبيض والأسود، وعينان مطموستان قد كفتا منذ زمن بعيد قبل أن يتعرف على خديجة ويتزوجها، ولا تختفي تلك الابتسامة مثلما أن زوجته لا تتوقف عن توبيخه، إلا أنه أحياناً يفقد السيطرة على نفسه فيهتف بأعلى صوته: - مجنونة..

فيزداد هيجانها ويتعالى صياحها الهستيري وهي تهرول في المنزل الواسع المترامي المبني من

الخشب والملقى وحيداً على مقربة من الطريق الصحراوي، والمنزل يبدو كبيراً جداً على امرأة تسكن وحيدة مع زوجها فهو يتكون من سور خشبي واسع قليل الارتفاع مبني على مساحة مربعة، وتنتظم بداخله في الجزء الغربي منه حجرات كثيرة تهدمت جوانب بعضها، فهذا المنزل ليس سوى مستودع بدائي كان فيما مضى لأحد التجار بناه في هذه البقعة المقفرة بالقرب من الطريق الصحراوي الذي تسلكه الشاحنات، ثم هجره منذ سنوات فاحتله الزوجان واختارا حجرة واحدة صغيرة وضعا فيها كل أمتعتهما، وأخرى اتخذاها مطبخاً. وخديجة التي لا تتوقف عن العمل ذات جسم نحيب وأطراف دقيقة إلا أنها مازالت تنبض بالحيوية. ويصعب التخمين بعمر المرأة في ظل التناقض الغريب بين جسمها النحيل الممتلئ في بعض الأجزاء يشي بالأنوثة والشباب وبين وجهها الجاف ذي اللون الأغبر.

كانت الشمس قد بدأت رحلتها إلى الغروب وألقت الحجرات المتراصة على الفناء الممتد أمامها ظلاً طويلاً، ونسمات خريفية أخذت تهب من الشمال

أغرت الأعمى فراح يتجول في الفناء بعصاه الغليظة. وفي هذا الوقت جلست خديجة متربعة على منضدة متهالكة مرتفعة أمام المطبخ تعالج بين يديها حبوباً تنقيها من الشوائب. نادى الأعمى بصوت مبحوح:

- خديجة، خدّوج يا حرمة.

لم يسمع جواباً، لكنه يعلم أنها تجلس الآن أعلى المنضدة تعد شيئاً للعشاء ثم تساءل وهو يقرع عصاه بحافة المنضدة:

- عدس أم أرز؟

- أرز.. بطيخ، المهم أنك ستتعشى!!

تدرج الأعمى ماشياً وهو يحرك العصا أمامه ملتمساً طريقه إلي الحظيرة، ثم أمسك بالماعز وقال رافعاً صوته في حبور وهو يتحسس بطنها:

- أراهن يا حرمة أنها ستضع توأماً متى ولدت.

ولم تعلق المرأة على كلامه، فأفلت الحيوان وقد اجتاحه انزعاج لتجاهلها المستمر له.

ثم نادى بتوسل:

- خديجة أعطيني ماءً..

وأخيراً جاءه صوتها الحاد صارخاً:

- وأنت ألا تعرف مكان الزير...

- يالسوء معاملتك لزوجك؛ الطيب المسكين ياخدوج.

- أنا المسكينة لأنني زوجتك أيها الأعمى الشرير.

غاب قرص الشمس تماماً مخلفاً في الأفق ألواناً دامية مهيبة، وتجاوب نداء الدجاجات وهي تأوي إلى مجاثمها، وكأن المساء قد فرض بقوة سحرية غامضة سكوناً واستسلاماً على جميع الكائنات، كانت خديجة تطهو الأرز بهدوء، والأعمى داخل الكوخ يجلس على بساط رقيق، ومع حلول الظلام كان كل شيء ينعم بسكون شديد، إلا أن صفير الرياح وأصوات الثعالب التي تترامى من أطراف الصحراء، أصوات ضئيلة متقطعة تبعث على الوحشة، وقد ازداد هواء الصحراء برودة مع هبوط الليل بيد أن رائحة الأرز المطبوخ تشيع في النفس شعوراً جميلاً

بالدفء والأمن.

وفي داخل الكوخ كان الأعمى قد انتهى للتو من سرد آخر حكاياته الخرافية بعد أن شبع من الطعام الساخن وعندما انقلب إلى فراشه قال لخديجة التي كانت تستمع لحكاياته بدهشة واهتمام:

- هذا المصباح مازال مشتعلاً! أطفئيه يا خدّوج لتنامي.

همست:

- سيصبح الظلام شديداً ولن أتمكن من رؤية ما أمامي.

قال وقد أطلق ضحكة مرحة:

- تحسسي الأشياء بيديك كما أفعل أنا.

قامت إلى المصباح المعلق رفعت زجاجته قليلاً وصوبت شفتيها إلى لسان اللهب المتراقص وهي تنفخ فيه: هف هف. فاحلولك المكان بلون كالكحل.

خطت خطوات حذرة وهي تدنو من الفراش تتحسس الفراغ بيديها، ولعلها تعثرت بجسم ما

منصور بن عبدالعزيز المهوس

(السعودية). نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

واشرح لها...

تسربت هذه الكلمات في منحدرات أذني اليمنى ومنعطفاتها، اخترقت غشاء طبلتها، امتصتها جمجمتي ناصعة البياض:

- هذا محمد الذي يجيد أبوه التطبيل.

رد خالي عليه:

- نعم.. لدرجة أن تطبيله يشرخ الزجاج.

انجذبت عـيناي الصـغيرتان إلـى خالي، استـفزني العجب، أردت أن أسأله عن مهـارة أبي في التطبيـل، من أين له تلك؟! لكنه انصرف قبل أن أسأله.

(يجيـد التطبـيل) والله عـجيب!! أنا أعـرف أبي جيداً، لا يـجيـد هذا العمـل، بـل يـترفـع عنـه، لـم أره يـومـاً يـحمل طبلاً ويـقرعـه، حتـى فـي مـكتـبتـه التـي يمـكث فيـهـا طـويـلاً هـي خالـيـة تمـامـاً مـن الطـبـل، آه.. أيمـكن أن يمـارسـهـا بـخفيـة مـع أصدقـائـه والـذي خالـي واحد منهم؟ نـعم يمكن ذلك، وربما هم الذيـن يوفـرون له الطبل..

والله عجيب (يجيد الطبـل)، أذكـر أنه فـي كل سنـة أنجـح فـيـهـا يـعـرض عـلـي بـأن يـشـتـري لـي طـبـلاً خاصـاً بالأطفال، آخرها هذه السـنة عندمـا انتقلت إلى الصـف الـسـادس، وفـي كـل مـرة أهـز رأسـي بـالمـوافـقـة لكن أمـي تستـهجن الفكرة وتتمتم بكلمـات مبهمـة.

(يجـيـد التـطـبـيـل) عـجـيـب.. كـلـمـة تـلـتـهـم قـطـع العـجب المنـتشـرة فـي مسـتطـيـل الذاكـرة. صـحـيـح أنـه أحيـانـاً إذا كـان فرحـاً أنـه يطـبـل علـى أي شيء أمـامـه:

فوق طاولة الطعام، على باب الثلاجة، وأحياناً على ظهري وأنا أمشي، ولا يحدث ذلك إلا عندما يخرج من مكتبته ومعه أوراق، أراها تضطرب بين أصابعه كالسعفة اليابسة، يأتي بهن إلينا ونحن جلوس في غرفتي، يقول لأمي بفرح يشبه فرحي بالأشياء الصغيرة:

- لقد حبكت الحروف في جسد هذه الأوراق حبكاً سيذهلهم، وبه أتفوق على المنافسين.. اسمعي.. اسمعي.

يهدر أبي.. فيتقافز إلى سمعنا صوت شرخ

حجرها فينفجر باكياً، لكن أبي لا يتوقف بل يواصل متمتماً في نفسه ومتمايلاً، تتموج أمي تحت سياط من جمر لا أعلم مصدره، فجأة يضرب أبي الطاولة بيديه مطبلاً. متمايلاً.. مطوحاً رأسه يمنة ويسرة.. وعلى إيقاع تطبيله المنتظم يغني بصوت ممطوط: (واشرح لها عن حالتي..) ثم ينصرف...

امتد وميض عيني نحو أمي مستفهماً عن ذلك، لكن مساحة الامتعاض ماتزال رابضة في محيط وجهها.. لا أحب وجه أمي عندما يستولي عليه الامتعاض.. أتأمل وجهها فتنهرني آمرة لي بأن أكمل واجب مادة الفنية: رسم نخلة، فوقها عصفور وبجوارها نهر.. رسمت النخلة وخوصها باللون الأحمر، مباشرة نظرت إلى أمي فلم تقل شيئاً، تناولت اللون البني لأكفن به جذعها، فإذا أبي يدلف علينا مترنحاً بالفرح والأوراق تصفق بين يديه، لمح لون العسبان فصرخ متعجباً:

- عسبان النخلة حمراء، لا يمكن ذلك! أنت تخالف الطبيعة، يا ولدي كن واقعياً. هززت رأسي متأسفاً فواصل:

- يـا ولدي اجعـلـهـا كـمـا خـلـقـهـا الـلـه، ثـم مـا هـذا العصفور؟ إنـه جميـل، لـكـن لماذا جعلت له رأساً؟ أمـا عـلـمـت أن ذلـك لا يـجـوز؟ اطـمـسـه، ولـون العسبان باللون الأخضر.

ثم خرج قائلاً بنبرة يتدحرج حروفها خلفه:

- عسبان حمراء ورأس عصفور.. لا يمكن أن يجتمعا في لوحة.. رمقت أمي مستعيناً برأيها فقالت ونظراتها معلقة بمصراعي الباب:

- صدق أبوك.. كن واقعياً.

- ورأس العصفور؟

لم تزل نظراتها هناك ولم تجب.

استلقى العجب في باحة عقلي، لابد من طرح السؤال على خالي حتى أسيطر على الشرخ النابت في أوردتي، زارنا فسألته وعيناي تسرح مع نملة تتجة نحو قدمه:

- خالي.. أنت قلت قبل أيام بأن أبي يجيد التطبيل، ولم أره يوماً يحمل طبلاً ويقرعه؟

قهقه خالي في وجهي بعنف، تراجع تحت تأثير هزات القهقهة لجسده وتراجعت أمام زحف الشرخ نحو أعماقي، شاهدت النملة تدور وتدور مصروعة من صوت القهقهات، واصل خالي القهقهة، إيقاعها المنتظم يتناغم مع تطبيل أبي وغنائه:

- واشرح لها عن حالتي.

إبـراهـيـم مـضـواح

(السعودية). نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

وساوس

وقف أمام المرآة يتأمل هيئته بعد أن لبس أنصع ثيابه، لم تعجبه غترته البيضاء، قرر أن يستبدلها بحمراء، الحمراء أكثر ثباتاً... أعاد ترتيب القصائد التي سيلقيها في الأمسية، سأبدأ بهذه القصيدة، لا... لا، الأفضل أن أقدم مقطوعات قصيرة لأنتهي قبل أن يمل الحضور.. ليتني أصل مقر الأمسية وهيئتي كما هي الآن؟ أترى هل سيكون ضمن الحضور؟! لقد وعدني بذلك... سيحضر.

- يا وفاء.. وفاء...

- نعم.

- هاه.. شكلي هكذا مناسب؟

- لماذا لم تلبس الغترة البيضاء؟

- ترينها أفضل؟

- طبعاً، أفضل!.

- هكذا أفضل؟ قالها وهو يثبِّت العقال على رأسه.

- أفضل بكثير.. توكلت على الله.

- توكلت على الله.

قال يحدث نفسه مزهواً وقد اقتعد منصة الإلقاء، في هذا المكان أضمن أن أراه في أي مكان جلس... لقد وفى بوعده، إنه يجلس في الصف الثالث، إنه يلتفت إلى الحضور، وكأنهم قد جاءوا من أجله هو، لا يا صاحبي، لقد جاءوا هذه المرة من أجلي أنا، من أجل صديقك الذي يتفوق عليك بقدراته ومواهبه، في حين تفوقت عليه بمالك، لابد أنك تتمنى لو كنت مكاني، هذا المكان يا سيدي لا يُنال بالمال،

إنه يُنال بالمواهب وبالمواهب فقط، لقد أنصفني الزمن هذه المرة، لقد وقف إلى جانبك كثيراً، لقد اضطرني للجري وراء لقمة العيش، لتصبح أنت كما أنت، بينما تُسفح مواهبي على عتبات الوظيفة... هذا الزمن هو الذي جاء بك اليوم إلى هنا لتنصت كما ينصت الآخرون، وتسمعني كما يسمعون... هذه

بخطى ثابتة تقدَّم نحو المنصة، ليقول: لم أستطع إزاء هذا الشعر الجميل أن أكتفي بالاستماع، فوقفت لأشيد بهذه الموهبة الشعرية الفذة، ولأطلب من شاعرنا المجيد، أن يتيح لي فرصة نشر هذا الشعر الجميل، بأن يأذن لي بطباعة ديوانه الأول على نفقتي.

- شكراً للأستاذ، كريم عرضه، ونبل قصده، عندما يجتمع من شعري ما يصلح أن يكون ديواناً، فيسرني أن يتولى طباعته.

قال لنفسه، وهو يصافح صديقه: حتى شعري تريد أن يُطبع مذيلاً باسمك، لن أمنحك هذا الشرف.

خـــالـــد
عبدالعزيز
الـقــرنــي

من مواليد 1967 (السعودية)، نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات، مجموعته: «غائبة هي، غائب هو الآخر» تحت الطبع.

حفلة من موت

الصراخ يعلو، الأجساد تفترش الطريق بعضها روحه فاضت وأخرى تستغيث، احتبس الصوت.!

على بعد أمتار أشلاء تتمزق... تتبعثر... سيارة تحترق.. شاحنة بترول ثقيلة تتربع كاهل أخرى..

الناس محتشدون ترسلهم أقدامهم باتجاه الجثث الملقاة..!.

أجواء موحشة وكئيبة...

غلالة من عتمة المساء بدأت تنتشر في المكان... هزتني سرمدية اللحظة!

ظلمة الليل تزحف متثاقلة في عفن شديد.. رائحة الموت تزكم الأنوف.

هكذا صرت في قلب الضجيج.

الإسعاف تزيد المكان كآبة بلحن صوتها النشاز.!

النيران تطمس معالم المذبحة.!

رجال يحاولون إنقاذ ما يمكن.. آخرون مكتوفو الأيدي أحدهم عبر (جواله) يقهقه صوته عالياً يدنس رهبة الموت! آخر صنع خماراً من شماغ ينتظر فرجة بدت له حفلة من موت.!.

هنا تطوقني لحظة سوداء أفقد معها إحساسي بالحياة ويتساقط الدمع في داخلي.

هناك في الشاحنة صوت صراخ.!

الحشد يقدم وسرعان ما يعود، أحدهم يصعد

إلى الأعلى يؤكد أن: هناك مستغيث تمتد يده نحو الباب المكلوم، يتجمد الباب.!

دوي الانفجار بفعل ما تحمله الشاحنة رهيب.. يتمزق جسده، بينما لف الدخان والغبار مسرح المذبحة، والناس يركضون في كل اتجاه لسان حالهم يبدو (سقطت ذراعك، فالتقطها).!

تتضارب الرؤيا، جدل جاف يدور بين المتجمهرين.!

تتوالى عربات الإسعاف، تنكسر العواطف، تجعجع:

تباً لك أيها الطريق من تظن نفسك.!. هل أصبحت دماؤنا وجبتك اللذيذة بل شهوة لديك؟

الأسد لا يقتل على عظمته إلا عندما يجوع.! أما أنت فتسفك دم من لا يؤذيك.! شهوة للدم لا شيء آخر. لا تعرف المفاصلة والمهادنة.!

كل الناس تعرف هذا لكنهم صامتون يمتطونك في اليوم مئات المرات كل ليلة تقيم حفلك الدموي، ونقف للفرجة!

في المشهد:

تتناقض أعمدة الدخان، يتلاشى وهج النيران.. الجرافات تحتضن أكوام الحديد.

أرتال من السيارات تجتاز منطقة الصدام.. الجموع تبكي لتغفو ثانية تبحث عن لون الحياة.!

جـمـيـل شـمـسـان

(اليمن) نشر قصصه في عدد من الصحف والمجلات.

بائع الملح

الـشوارع المـوقـدة تـسـتـعـر حـرارة تحت الأقـدام الحافـيـة والـزكـام يـذكـي وقـيـدهـا لـتـسـتـعـر أكـثـر ولا تـنـطـفـئ، الأرصـفـة أشـواك مـدبـبـة وحـادة، والأرجـل النحيلة تنتعل «شباشب» قد تعرت بفعل الاحتكاك المستمر بالشوارع والأرصفة.

خـرقـت شـوكـة مـنـطـاده الحـذائـي فـتـلاه هـبـوط

اضـطـراري سـريـع نـحو الأرض عـقـب الإشـارة الـتـي وصـلـت مـن رأسـه بـضـرورة الـهـبـوط، عـنـد الـوصـول افترشت مظلته الوقيد وتمدد تحول ساقه أمامه، انتزع الشبشب رافعاً إياها إلى أسفل العدسات في مختبر عينيه، وثنى جزءها الأسفل وانتزع الشوكة، بعد الـفـحـص الـدقـيـق تـراءى لـه أن الجـزء الحـاد فـيـهـا مكسور، فرماها لخلفه دون مبالاة.

أحنى عظام ساقه فوق ركبته الأخرى التي مدها فظهر اللحم الخفيف الذي لم يعد ملاصقاً للعظام والجلد الذي اسود بفعل الزمان وتعب الأيام والسنين، تحسس مكان الألم بإصبعه الوسطى مركزاً كل الإحساس فيها، ثم وضع سبابته فوق لسانه منتزعاً لعاباً وضعه فوق الجلد الخشن في مكان الألم، امتصت خشونة الجلد اللعاب سريعاً، كرر العملية مرة أخرى، دون أن ينظر إلى الموضع الذي ترك فيه اللعاب وكأنه يعرف سلفاً أن اللعاب سيمتص، وضع اللعاب في نفس موضع الأول وبالمجرفة المثبتة في طرف إصبعه جرف الأوساخ حيث تكدس لوناً أسود

تحت الظفر، ذهبت إصبعه إلى لسانه لمرة ثالثة واستعارت كمية أكبر من اللعاب، وضعها في نفس المكان، ثم كشط جلداً خشناً قد انتهت صلاحيته بظفر إصبع أخرى، تماسك الجلد ببعضه تحت الظفر فبدا بنياً.

أخذ موضع الألم بين سبابته والإبهام وقرب عدسات عينيه لتلائم بعد المسافة بين باطن قدمه وعينيه، ضغط بشدة فانقبض وجهه الأسمر المطرز بالبياض. صغرت مساحة عينيه ودائرة شفتيه فبرز فمه الذي انهارت بعض أعمدته فتركت فيه الخواء، ركز مرة أخرى، لم ير سوى دم قليل. وقف ورمى بالشبشب نحو الأرض ولوح بيده نحو الأسفل إلا أنه رفعها قبل وصولها قالباً باطن كفه.

وضع رجله في الشبشب، وحمل كيسه فوق ظهره الذي انحنى فصار الرأس يتقدم الجسد قليلاً، ودلج بوابة الزقاق، حينها خرج صوته القوي صارخاً: يايووو....، يا يووو....، لم أتبين معنى صراخه فتتبعته إلى الزقاق الذي تردد فيه صوته القوي، يقرع أجراس الأحجار الملساء، يفتح صمت النوافذ

المغلقة، يمر عبر سرات الأقفال المثبتة في بطون أبواب الحديد، يوقظ غفو الآذان النائمة.

صرت قريباً منه، خلفه، بجانبه، شبه ملاصقاً له، عيناي تقلب كلمات الكيس الأبيض الذي في يده، تفتش عن تفسيراً للصراخ.

صاح مرة أخرى، فتزاحم الصوت في طول الزقاق وعرصته: يايود، يايود.

ألـبـاب الخـلـيـفـة

من مواليد 1975 (السعودية). مجموعتها الأولى تحت الطبع

خيوط الثوب الأبيض

وحيدة.. إلا من النافذة المفتوحة في غرفتي، والنهار الخريفي يراقب الأشجار.. وهي تتفق أن تتعرّى؛ لتستحم ببقايا حبيبات الشمس الصفراء الباهتة.. شيء ما في هذا الخريف يتناغم مع روحي.. ضبابه الرطب يذوب بهدوء على جسدي، ذرات الرمال الناعمة.. تحملها رياحه الخفيفة إليّ؛ لتداعبني؛ لتوشوش في أذني كلمات تكبر بداخلي لتكون

رسائل، وهدايا، ووروداً بنفسجية تارة، وأخرى حمراء كدمائي.. من أرسلها لي واختفى بين الأثير..؟؟ أويستطيع أن يختفي؟! وأنا أشم أنفاسه تدغدغ أنفاسي، وأشعر بقلبه يقترب مني.. يفرد لي جناحيه، ويطير بي إلى عالم سماوي.. أنا.. وهو.. وملائكة صغار... يرفلون من حولنا سعادة وحباً.. ينثرون في طريقنا الأزهار، واللالئ، والمرجان.. جنة حقيقية تنبعث من فم الخيال...

أي رغبة ملحة في أن نكون معاً تعشعش بداخلي..! وأي حلم يراودني ليل نهار..!

لابد أن يجمعنا القدر ذات يوم.. لابد أن يتوقف ذات ليلة عند أقدامنا..

لابد أن يفعل...

وحيدة... إلا من الروح التي تتقلب على سريري، فلا تقدر أن تنام... إلا من الليل الذي يجثو على ركبتيه.. يائساً، حيران.. والنافذة التي كنت أفتحها كل يوم، أغلقتها الآن..!! أقفلتها بإحكام... فالضباب الذي كان يذوب بهدوء على جسدي.. باتت

له حبال، تلتف حول عنقي، وعصابة تحيط بعينيّ، وذاكرتي.

الهم يعصرني.. كقزم في كفِّ عملاق، يمسك بخناقي حتى تتساقط أزرار قميصي.. زراً، زراً.. وأنا أدور في أركان هذه الغرفة، أدور تاركة خلفها صوت أمي الرخيم، يتردد من ركن إلى ركن.. وهي تنادي لوجبة العشاء..

لعل الهدوء يجعلني أفهم ألغاز نفسي.. لقد طلبني ذلك الرجل للزواج.. اليوم أقول ذلك الرجل!! ولطالما سمحت لنفسي، وقلمي بإسباغ كل الصفات الحلوة التي تتمتع بإطلاقها كل امرأة عليه.. والآن.. بعدما أوشكت أمنيتي أن تتحقق أسميه ذلك الرجل..!

آه لكم كنت أحبه، أتمناه!.. منذ بدأ يزورنا في البيت.. وأنا معجبة به كان رجلاً متزناً، خلوقاً.. إذا تحدث يفتر ثغره عن ابتسامة ساحرة تكشف بياض أسنانه، وبريقها.. وإذا حدّق تراقصت في عينيه أضواء البراءة، والمحبة.. وكان صديقاً لأخي الوحيد..

لم ينقطع عنا يوماً منذ وفاة والدي.. له سمعة طيبة، ومكانة يحسده عليها الجميع.. كلهم يحبونه ويرتاحون إليه، وكأنه صديق كل فرد في هذه المدينة، أنا نفسي التي لم أنتبه يوماً لرجل، قد لفت انتباهي هو...!!

وقضيت ليالي عدة أفكر كيف اقتحم عليّ حياتي.. وسرق مني نومي وبراءتي..؟؟ فيوم فتحت جفنيّ عليه لم أغمضهما أبداً... وهو الآن يتقدم لخطبتي..!! لقد ذهلت تماماً عندما فاتحتني أمي!!.

أنا سأتزوج من حلمي، أملي، سعادتي، حياتي كلها مرهونة بهذه اللحظة.!!..

فلماذا هذا الضيق يحاصرني؟ لماذا أنا لست سعيدة؟

لماذا أشعر الآن بالذات بأني أكرهه أمقته؟ أشعر به وكأنه عدوي، عدوي الذي يجب أن أنتقم منه، لا أن أذهب إليه في ثوب أبيض سخيف..!

كان قمراً يتوسط قلبي.. لا بل أحلى، أكثر..

والآن كأنه.. أراه كأنه غراب.. يحيط بي..

يسورني، يسقيني حيرة وعذاباً.. وأنا أشرب، وأدور في دوامته، فيمد مخالبه.. ليأخذني.... بهمجية وعنف، بجنون.. يقربني من جسده، يمسك أذني بيديه.. ينعق فيها وينعب.. وذرات الرمال التي كان يرسلها؛ لتداعبني؛ لتوشوش في أذني.. أراها تتراكم.. لتصبح صحراء قاحلة تخرج من تحت أنقاضها أرواح تحوم، تصرخ، تشتكي.. آه لكم أشتهي أن أريح رأسي.. أن أنام.. لقد أصبحت أراه حتى في يدي، في خطوط كفي.... ولا يدعني أنام..!!!

ما الذي حدث؟ لا أدري ربما أنا مريضة، وربما أهذي أتراني عاجزة عن فهم نفسي، لأول مرة ينتابني هذا الشعور الغريب.. أشعر أن ما بداخلي كبير كأنه في الأربعين! وكان سني يصغر عن فهمه، ولكن ما يحيرني من أين أتى هذا الغراب اللعين؟

فذلك الرجل أبعد ما يكون عن الغراب.. من أين أتى؟.....

هذا الغراب كأني رأيته من قبل.. في أحد

كوابيسي المزعجة.. ربما.. نعم.. بدأت أسترجع لحظة من حلم شاردة أتذكر أني رأيته فيها.. كنت لم أزل في المهد.. أجل أتذكر ذلك بوضوح.. في المهد صغيرة عندما جاء هذا الغراب الأسود، وانتزعنا.. أنا وأمي من بيت جدتي الدافئ.. من حضنها الحنون.. من صوتها المليئ بعبر الآخرين، وعبراتهم، انتزعنا في العتمة ورمانا هنا.. هنا.. في هذه المدينة..

وهو، هو أيضاً الذي زراني ثقيلاً ذات مرة.. كان ذلك عندما كنت أيضاً صغيرة، وكان أبي يدللني، ويحقق لي رغباتي.. رأيته ذلك اليوم يدور في بيتنا.. ينظر إلى أبي ثم ينعق وينعب.. أتذكر أني قلت لأبي ذلك..

بأني أرى غراباً أسود كريهاً.. لكنه طلب مني أن أهدأ، أن لا أتكلم لأنه كان يريد أن ينام.. ومنذ ذلك اليوم لم يستيقظ أبي!! يبدو أنه لم ينم منذ سنوات طويلة!!..

آه.. لكم أشتهي أن أنام.. أمي لاتزال تطرق

باب غرفتي، لكني أخشى أن أفتحه ثم يطير الغراب.. ويأخذ أمي، وأخي،، وأنا أبقى وحيدة..

أمي تطلب مني تبريراً لحزني، وعزلتي.. وعندما لا تجد مني جواباً، تطلب مني أن أنسى الموضوع، وأفتح الباب.. وتعدني بأن تنساه هي وأخي..

لكنها لا تعرف أن غراباً معي في غرفتي، وأني أرى آلافاً مؤلفة من الوجوه التي تشبهني معلقة على الجدران.. تصيح وتقول.. لا توافقي فهو لا يشبه أباك تماماً..

لا أدري ما الذي استيقظ داخلي فجأة.. نعم ذلك الرجل لا يشبه أبي.. لا يشبه أبي مثلنا، وهو لا يعرف جدتي مثلنا..

وهو لا يشم رائحة الدخان أينما يذهب مثلنا.. وهو لا يملك عيناً سوداء مثلنا..

فربما يقتل ذاتي، ويسرق فكري، ويخنق تائي.. أو ربما يضع رأسه على الوسادة، ويغرق في نوم

عميق.. كله راحة، كله أحلام وردية.. نعم.. فهو لا يعرف الأرق، وأنا لا أريد رجلاً لا يعرف الأرق..

لقد قررت ذلك.. وأنا بين عقارب الصحوة والمنام، بين دقات الأرق والتعب، بين تأخر النعاس وتقدمه...

يهتز رأسي.. فرأيت جسمين شفافين يدوران في غرفتي، أبي وجدتي...

ثم رأيت أخي وأمي يخترقان غرفتي.. أمي وقد انطفأت شمعة حائرة على وجهها.. وأخي وقد اشتعل رأسه هماً.. وفهماً.. ويأساً....

عبدالملك مرتاض

من مواليد 1935 (الجزائر)، أكاديمي، وناقد، وروائي، صدرت له مجموعة «هشيم الزمن» 1988.

صوت الصمت

والقطارُ يَصْفِر. ويصفر. وينساب بين المروج والغابات. ويَضيع في حقول الذرة. ينساب بسرعة جُنونيّة. كأنّه ثعبان عظيم يفرّ نحو المجهول. ويصفر عادياً لاهثاً. لا تحدّ من سرعته عِقابٌ، ولا تحول دون زحفه جسور أو هضاب... ويصفر وينساب... وأنت تسترق النّظر إليها. كأنّك تخاف أن تراها. لعلّك أصبْتَ بالانبهار. من فرْط جمالها. ربما... أنت الآن قابعٌ على مقعدك في عربة القطار. باتّجاه سيره نحو الأمام. هي

لا. تجلس على المقعد المقابل لك بعكس اتّجاه القطار. هي تقابلك. تنظر إلى ما ورائيّات القطار من مناظر ومَشاهد بديعة. في حين أنّك أنت تشاهد ما يترا ءى من تلك المناظر؛ قبل أن يلتهمَها القطارُ بِعَدْوِه وانسيابه.

لا أحدَ في هذا القطار يهتمّ بالآخر. أو يسأل عنه. أو يفكّر في أمره. أو يعبأ بوجوده. كلٌّ منطوٍ على نفسه. لا أحدَ يحادث الآخر. كأنّ النّاس هناك لا يتحدّثون. لا يثرثرون. لا يعلّقون. كأنّهم فقدوا لغة الكلام. لا. بل كلّ يُمسك بكتاب أو مجلّة أو جريدة وهو يقرأ. كأنّ أولئك القوم لم يُخلَقوا إلاّ لقرا ءة... وكان هناك في غرفة العربة سيّدةٌ أخرى... هي أيضاً تقرأ. وصبيّ بجانبها في زها ء الرّابعة، هو أيضا يقرأ. يتصفّح الصّور الجميلة المثقِّفة... لا يتحدّث مع أمّه. ولا تتحدّث معه أمّه. كأنّها ليست أمَّه، وكأنّه هو ليس ابنَها.فكلّ مشغول عن الآخَر بالقرا ءة... وأنت أيضا تقرأ. ربّما بالعَدْوى تقرأ. فقط. لأنّك أنت أصلاً تنتمي إلى مجتمع آخر. إلى أمّة أمّيّة لا تقرأ. لا تكتب ولا تقرأ. أو لا تكاد تفعل ذلك. لكن عليك أن تتعوّد على القرا ءة، فتقرأ كما يقر ءون. أمر محتوم. قضاء نازل عليك في هذا القطار الذي يعدو

كالثعبان المُخيف. لا يجوز أن تظلّ أنت وحدك دون قراءة في هذه الغرفة. فلْتقرأ أنت أيضاً. لكن ما ذا تقرأ؟ تتذكّر الآن. في محفظتك مجلّة تخرجها... لا، بل كتاب. كما تقرأ هي كتاباً. هي. تلك. هذه التي تُمْسك بكتاب. يبدو أنّ الكتاب الذي كانت تقرؤه هو رواية. بل هو رواية فعلاً. هي لبالزاك. لقد قرأته... «البحث عن المطلق». لمَ تقرأ هذه الفتاة هذه الرّواية البالزاكيّة بالذات؟ فهل هي أديبة ناشئة؟ أم هل هي طالبة في السّوربون؟ ربّما طلب إليها أحدُ أساتذتها تحضير بحث حول بالزاك. ربما هي طالبة غيرُ فرنسيّة، تتحدّث، أصلاً، لغة أخرى. ربما تكون الألمانيّة. والفرنسيّة مجرّد لغة تريد أن تتعلّمها، أو تعلّمتْها.

القطار ينساب بين الغابات والحقول. ودخانُ المصانع يتصاعد أسودَ. يتراءى من بعيد. تهبّ عليه الرّيح فتتشكّل منه تشكيلات في الفضاء فإذا منه خطوطٌ وأشكال مرسومة في الأفق المطبق بالسّحاب الكثيف، الذي يغطّي ما حول الفضاء الذي ينهبه القطار الذي يتجاوز الآن طبقة صفيقة من الضّباب الذي يحجب عنك الرّؤية.

أنـت الآن لا تـكـاد تـرى مـن تلـك المـنـاظـر إلاّ مـا اقتـرب منك بضعَ خُطوات... والفتاة لا تحفل بالسّحاب ولا بالضّباب. وكأنّ هذه الطّبيعة لا تَعنيها. لا تعنيها لأنّها جزء منها. هي ماضية في القراءة، والقطار ماضٍ نحو الشّرق. ألا تكون هذه الفتاة ألمانيّة؟ تبدو جميلة جداً. تبدو ساحرة. كأنّها الجمال العبقريّ نفسُه تجلّى أمامك. لا ينبغي أن تكون أيّ امرأة أجمل منها على الأرض! كذلك بدت لك. كان شعرُها الأشقر مرسلاً على كتفيها. كان حريريّاً ينساب ويتحرّك لمجرّد التفاتة خفيفة تلتفتُها. وحين دخل مراقب القطار ليطلب منها تذكرة الركوب. ابتسمت. بدت أسنانها بيضاء كحبّات البَرَد. السِّنّان الأماميّتان في الفكّ الأعلى كأنّهما ناتئتان قليلاً. لكنّهما زادتاها فتنة وسحراً. كأنّ نتوءَهما الخفيف إنّما كان من أجل أن تكون أجمل امرأة. ربّما في الكون كلّه. ابتسمتْ، فكان لابتسامتها وقْع كالتّيّار الكهربائيّ الصّادم في قلبك. أأنت عاطفيّ إلى هذه الدّرجة؟ أم هي جميلة إلى هذه الدّرجة؟ ربّما جمالها أقوى وأعظم من أن يقاوم أمامه أرزن الرّجال. وما أنت إلاّ رجل... والقطار ينساب. ويدخل في نفَق طويل. مظلم. مظلم خارجيّاً.

لكنّ غرفة العربة لم يتغيّر منها منظرُها الدّاخليّ المُضاء شيئاً. تغيّر المنظر الخارجيّ فقط. وهي لا تلتفت. كأنّ كلّ هذه المناظر تعرفها. وتمضي في قراءتها وقد خرج القطار من نفقه. وعادت المناظر الطّبيعيّة إلى سيرتها الأولى. بل لقد أشرقت شمس شاحبةٌ على النّاس. عائلات تتنزّه. أفرادها يضطجعون على العشب الأخضر الذي غطّى كلّ وجه الأرض. لا شيء إلاّ وتراه أخضر. إنّه الصّيف الذي يستحيل في ذلك البلد إلى ربيع، وأيّ ربيع. وتنظر من نافذة القطار نحو سرب من الفتيات مضطجعات على العشب الأخضر. يُرسلن إليك إشاراتٍ تدلّ على أنّهنّ يحيّينك. هي عادة الفتيان والفتيات هناك في فصل الصّيف. وحين يمرّ بهم قطار مكتظّ بالرّكّاب... وأنت تُمْسك بكتابك... لم تعدْ تذكر عنوانه... ليس مهمّاً على كلّ حال. لأنّك لم تقرأه. لم تقرأ منه شيئاً. أخرجته مروءةً فقط! من باب حفظ كرامتك أمام مجتمع قارئ... لأنّ الذي كان يشغلك تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين. عينان تبثان السِّحْر في الوجود كلّه. وذات الشّفتين الرّقيقتين. شغلك أمرُها. وأنت لا تستطيع مفاتحتها. لا تعرف اللّغة الألمانيّة. أنت تفترض فقط أنّها

ألمانيّة. كلّ شيء راقٍ ونظاميّ وعلميّ في ألمانيا. فافترضت أنّ هذا الجمال العظيم ألمانيّ. وإلاّ فما منعك أن تتحدّث معها بالفرنسيّة؟ أن تسألها عن شيء ما. تصطنع السّؤال. لكنّ بديع جمالها جعلك تعيش في محرابه متأمّلاً حالماً. وشارداً. شغلتْ عليك وجودك. ومنذ ذلك اليوم بدأت تصلّي. صلاة العلماء. تقدّس اللّه وتعبده لأنّ مثل ذلك الجمال العظيم لا يقدر على صنعه إلاّ اللّه. لكنْ أنت ما ذنبك أن تتدمَّرَ به؟ وبالمصادفة العجيبة. وهلا كانت غرفتك غير غرفتها، أو غرفتُها غير غرفتك؟ وهلا كنت مع أيّ عجوزٍ شمطاءَ تودّع الحياة؟ ما ذنبُك أنت بالذات لتكتويَ بنور جمالها العظيم؟ لم تعُد تشكّ في أنّها بليّة من السّماء نزلت عليك. ربّما لأنّك عصيت اللّه في شأن... فكان جزاؤك أن تحترق بنار جمال هذه الفتاة التي لا تعرف جنسيّتها ولا لغتها. ولا فيم تفكّر الآن؟ ولا كيف تفكّر؟... وابتسامتُها وهي تُخْرج التّذكرة لتقدّمها إلى المراقب. كم كانت، يا اللّه، ساحرة!... وكأنّها تنظر إليك تارة، بعد تارة. كأنّها كانت تريد أن تقول لك شيئاً ما. لا تدري. ربّما كانت تريد أن تحتجّ عليك لإزعاجك إيّاها. بنظراتك

المتتابعة إليها. تريد أن تبتلعها. تريد أن تلتهمها. تريد أن تسمع صوتها. لا بدّ أن يكون لها صوت جميل كصورة جسمها. كشكل شعرها. كـ... وابتسامتُها إلى مراقب القطار المحظوظ. لو كنت مثله لتلقّيت ابتسامات جميع المسافرات الجميلات. لا بل هذه فقط. وابتسامتُها كأنّ كلّ أشعّة الشّمس الصّباحيّة تجمّعت في ثغرها فبدأ الشّعاع العظيم ينبعث منه. ينبثق عنه. لتكتويَ أنت بالنّار. لتفقد صوابك. ليَضيع طريقُك. لتنسَى نفسَك. لتُمسيَ لا شيء. لتتلاشَى في وجودها الكريم. لتذوب في كيانها البعيد عنك. المستحيل عليك. لتفقد وجودك نهائيّاً... والقطار يزداد عَدْواً. كأنّه متلبّس بجريمة ويريد الفرار من المُطاردين. والمناظر تتجدّد وتتشابه. وتتشابه فلا تتجدّد. وصَمْتُها يدلّ على سيْل من التّساؤلات المحيّرة في أعماق نفسها: «فمن هو هذا الرّجل، يا تُرى؟ يبدو شرقيّاً، عربيّاً. يبدو ذلك من هيئته. من سمرته. من خجله خصوصاً. فمن يكون؟ وإلى أين يمضي؟ ومن أين جاء؟ وما ذا يفعل في هذا البلد؟ هو غريب حتماً. تقرئين على وجهه ألف سؤال، وألف حيرة، وألف عاطفة غامرة. كيف يمكن أن يكون هذا؟ الرّجل الغربيّ لا يسلك هذا

السّلوك مع المرأة إلاّ نادراً. هو يحرقك بنظراته. في كلّ نظرة يكتب إليك رواية غراميّة جميلة. في كلّ تنهيدة يتنهّدها يرسل إليك منها ألف حبّ وحبّ. تتضايقين. تُحسّين بخيلاء المرأة الجميلة ودلالها. ولكنّك في قرارة نفسك سعيدة أن يُحرقَك هذا الفتى الشّرقيّ الأسمر الوسيم بنظراته المثقلة بالعواطف العارمة. وتُحسّين بأنّه طاهر بريء براءة الصّبيّ. وترفعين بصرك لتحدّقي في وجهه. لكنْ عبثاً. الفتى خجول جداً ولا يستطيع أن يواجه نظراتك، بنظرات مثلها. هو يسترق إليك النّظرات. فقط. لا يريد أن تنغرس نظرتُك في نظرته. إنّه يريد، ولكنّه لا يستطيع...».

القطار يصفر عادياً كالثعبان العظيم الهائج. وأصابعُها اللّطيفة المخضَّبَةُ أظافرُها تقلب أوراق روايتها التي كنت تودّ لو استطعت في تلك اللّحظات القصار أن تكتب لها أروع رواية حبّ وإعجاب بجمالها العظيم الذي كأنّه لا ينتمي إلى جمال نساء البشر... كيف يمكن أن يكتمل الجمال بهذا الشّكل البديع؟ وأنت لمَ ابتُليت بكلّ ذلك لتحترقَ؟ ليكتويَ قلبُك إلى الأبد... وقطارك السّريع سيتوقّف. وهذه هي محطّتك. ولعلّها محطّتها

هي أيضاً... لا. إنّك تنهض لتنزل. لكنّها هي باقية في مقعدها. وتُرسل إليها نظرة كأنّها شعلة من نار. كأنّها النّظرة الأخيرة. بالتّأكيد. وتلتقي نظْرتاكُما لأوّل مرّة. وتفترّ شفتاها عن ابتسامة رقيقة. رقيقة. انبعث منها إليك رسيس من السّحر.... فتفترّ شفتاك أنت أيضاً. مودّعاً بالابتسامة دون الحديث. وتنزل إلى رصيف المحطّة... وينطلق القطار مستأنفاً رحلته وهو يصفر. وترسل أنت نظرة أخيرة إلى نحو غرفة العربة لعلّك تراها. ولكن ما ذا ترى...؟ الفتاة قائمة وهي تحدّق إليك بنظرها. مبتسمة. ثمّ... ترسم لك قبلةً كبيرة... لكن على زجاج نافذة القطار... الذي تخفّى عن بصرك بسرعة مذهلة...

الجزائر، في 5 أكتوبر 1999

علـــــي الـغــريــب

من مـوالـيـد 1969 (مصر) قاص ومسرحي.

أمريكا

هـذه امـرأة كـريـهـة لا تـلـد إلا الإنـاث «....» قالها مرتضى البوستجي لنفسه ثم انزوى في ركن من الدار، وجلس القرفصاء واضعاً يديه على رأسه كمن ينتظر طامة. النساء تروح وتجيء أمامه بين غرفة نومه وسائر منافع الدار في عجلة غير عادية. القابلة تأمر وتنهي:

- ماء فاتر. قطعة قماش مبللة.. تحركي يا بليدة!

- حاضر يا حاجة سيدة.

كانت أذنه مع النساء في غرفة الولادة وذهنه شارد هناك في مصير هذا القادم، والعالم على أبواب حرب مدمرة، فالمذيعون والصحفيون الذين لا يثق فيهم كثيراً قالوا إن العالم قبل 11 سبتمبر 2001 غير العالم بعد 11 سبتمبر 2001، لكنه مضطر لتصديقهم هذه المرة على الأقل لسببين الأول أنهم نقلوا هذا الكلام عن مسؤولين رأى بنفسه الشر في عيونهم على الشاشة، والثاني أنهم زملاء مهنة فهم يُعلمون الناس بالصحف والتلفزيون وهو يُعلمهم بالخطابات المسجلة والخطابات العادية، وخطابات التجنيد والتوظيف. ولابد من احترام زملاء المهنة على أية حال!

ماذا سيفعل إذا أتت أنثى؟ سيكون مكبلاً بسبع بلاو هن بناته! آه لو جاء الولد لتغيرت الدنيا، ولكان سنداً له وربما حمل عنه حقيبة الخطابات التي هدت قوته، وترغمه على التعامل مع نساء البلدة وصبيانها! زفر حانقاً وتذكر زملاءه في المركز الذين حولهم البريد الإليكتروني إلى كائنات مكتبية

تحتسي الشاي وتنتف فروة الخلق وأصبحوا ينظرون إلى حقيبة الخطابات على أنها «موضة» قديمة!

- تباً لك أيتها القرية المتخلفة أنت والتي ستلد العبء السابع بعد قليل.

أخرج سيجارة أجنبية اشتراها من دكان «أبو صديري» وراح ينفث دخانها في كثافة كالتي تخرج من مؤخرة دراجته النارية وهو يطوف بها القرية مستغرقاً في أفكاره، التي قطعها صوت قادم من مسجد القرية يدعو الناس لأخذ حذرهم من الإرهابيين الذين قد يخطفون أبناءهم أو يسممون مواشيهم. وصله الصوت متقطعاً بفعل هواء العصاري، مختلطاً بقرقرة دجاجة؛ انتصب فجأة ثم تهللت أساريره وهتف:

- أمريكا.. أمريكا.. سأسميها أمريكا. الدنيا ليس بها فقر الدنيا بها قلة رأي، والذي لا تحتاج وجهه ستحتاج إلى قفاه. هل نضرب الدنيا لو لم يأت الولد؟ هذه القادمة التي أسميتها مصيبة ستكون مفتاح فرج عليك وكل أهل البلد التعساء. اصح

يـا مـرتـضـى أمـريـكـا تـوعـدت سـتـين دولـة أنـت وأولادك وقـريتـك بـعض مـواطـنيـهـا. لن يـنجـو أحـد من شر أمريكا.

قلب الأمر وفكر فيه جيداً، فسحب «قلة» الماء وتمضمض وبصق على التراب فثار الغبار ثم فرك يديه وشرع في دعاء ملح يرجو الله أن يكون القادم أنثى!

- كل الـنـاس تجاوبت مـع مـصـيبـة أمـريـكـا وقـدمـت فـروض الـولاء والـطاعـة إلا أنـا وبـنـاتـي. لِمَ لا أكـون كغيري.. هل أنت ناقص يد أو رجل؟ لا تتأخر عن الواجب يا مرتضى. لتكون أمريكا إذاً. هذا أقصى ما أستطيع تقديمه من مساعدة، وما أكثر أصحاب الـفضائيات الذيـن يسترقـون السـمع. سأفـتـح لهم داري مـن الـبـاب الـكـبـير وجمـيـع الـنوافـذ حتـى بـاب الزريبة سأفتحه، ليصوروا على الطبيعة.

كل هذه الأفكار شجعته على استخراج سيجارة جديدة كافأ نفسه بها. جلس مرة أخرى وهو يفكر في طريقة الـتـصـريـحـات المتوالـيـة عـلـى صفـحـات الجرائـد ومحطات التلفزيون:

- الـرئـيـس بـوش يـحـذر قـواتـه مـن تـعـرض أمـريـكـا

الصغيرة وأخواتها ووالديها وجيرانها لأي أذى أثناء القصف.

- المسؤولون الأمريكيون تعهدوا بتوفير كل سبل الأمن والرعاية لأمريكا الصغيرة وأهلها.

- وزير الصحة الأمريكي يأمر بفتح مستودعات الحليب والغذاء لأمريكا الصغيرة.

- والد أمريكا يشكر الرئيس بوش، وبوش يدعوه لزيارته في البيت الأبيض.

زغرودة مدوية انطلقت فقطعت حبل أفكاره؛ فألقى السيجارة الأجنبية غالية الثمن في عصبية ثم نهض وفركها بقدمه صارخاً في القابلة:

- أعوذ بالله منك أيتها الحدأة.. كنت على وشك لقاء بوش يا امرأة!

- مبارك يا سي مرتضى جاءك ولد مثل القمر.

دارت به الأرض وانقلبت حساباته، فها هو الولد قد جاء بعدما انتظره سنوات وسنوات، وعندما عدل عن رأيه وهيأ نفسه لاستقبال الأنثى جاءه الولد ليكون عبئاً حقيقياً عليه! رغم إحساسه بالورطة التي

حلت مع قدوم الولد، فقد أيقظ الخبر حلمه الكامن في صدره ونشط الأمل في نفسه، وطغى فرحه بالولد على كل الأحداث، وكاد أن يلقي عنه كل أفكاره والتمرد عليها، لكنه هتف في نفسه:

- لا.. أنت أعقل من هذا يا مرتضى.. العالم مقبل على حرب وأنت وأولادك أضعف خلق الله. طالما حذرت الناس من الويل القادم ولم تبخل عليهم بآرائك أتنصحهم وتنسى نفسك؟ بئس الناصح أنت.

فكر.. تردد.. أخرج سيجارة ثالثة.. أخذ منها نفساً عميقاً.. صاح فسمعه كل من بالدار:

- عبد أمريكا.. سأسميه عبد أمريكا.. هذا أحسن لأكون صدت عصفورين بحجر واحد. رزقت ما تمنيت وهيأت نفسي للخطر القادم.

أخرج سيجارة رابعة أشعلها من الثالثة، وجلس إلى الجدار يُعدل عناوين الأخبار التي تخيلها قبل قليل، يغير الضمائر ويسقطها على عبد أمريكا الصغير.

عبداللطيف الــزكــوري

مـن مـوالـيـد 1967،*(المغـرب)، شـاعـر، أصـدر مجـموعـة «أشـيـاء معتادة»* 2002.

سيدة القوارب البحرية

«تمخر السفن الكبار، البحار الكثار، في مغامرة، وفي إصرار؛ لكن القوارب الصغار، ينبغي لها أن تحاذي الشواطئ في حذار...»؛ بهذه الكلمات، خاطبت السيدة ليلى - وهي سيدة جيدة التعليم تهوى أساليب الأقدمين - ابن الجيران الطفل الصغير كمال. كان الطفل يتردد عليها في غسق المساء ات، لتدربه على حل التمارين المدرسية، والحق أنه كان يتطلع إلى منزلها، كلما مر بمحاذاته، لعل

السيدة تراه، فتمنحه بعضاً من حلويات سبتة، تلك الحيوات التي كان يهواها، ويلتذ بازدرادها.

لم يبق مع السيدة ليلى من أولاد. فكل أولادها كبروا وتزوجوا، ولذلك وجدت في كمال تداركاً لعاطفة الأمومة الراقدة. وكانت ليلى من شدة حماسها لذكائه وحنانها عليه تتفنن في صنع اللعب له، من شتى الأشكال. وكانت لعبة القوارب الورقية تعجبه، أيما إعجاب. وهي اللعبة التي مافتئت تبتكر في أفانينها وتخترع، إلى أن بلغت مرحلة من الجمال، حين بدأت، هذه الأيام، تصنعها بخشب الأبنوس الصقيل الجذاب، وآخر ما صنعته قارب نحتت في دقله اسم «الحريري»..

* * * *

«كل سفينة قصة، إلا التي نبحر عليها»، بهذا افتتحت ليلى درس هذا المساء الصيفي مع كمال. كان سعيداً بالإصغاء إليها؛ ولم يكن لديه ما يفعله. لقد نجح في هذا العام الخامس الدراسي بتفوق. وقد أدرك - قبل أن يقول له ذلك معلم العربية صراحة -

بأن نجاحه، إنما كان بحفظه الذكي بعض مقامات الحريري، وهو ما كان ليحفظها، لولا حافز القارب الأبنوسي الجميل. إن السيدة ليلى، وقد حققت ما خططت له، أرادت أن تجعل متعلمها المحبوب، يقبل على قصص ألف ليلة وليلة، ومن بعد على القصص الأوروبية في لغتها الأصلية أو مترجمة مثل قصص جزيرة الكنز، وجزائر العجائب والغرائب، وموبي ديك.. والشيخ والبحر. ولم يكن لديها من مكافأة، تجازي بها متعلمها الذكي، سوى القوارب بصنوفها..

قبل أن تري الطفل الصغير الوديع شكل القارب الجديد. وصنفه واسمه.. صارت تذاكره في المقامات المحفوظة، وتستثيره لاستظهارها.. ومن عجب أنه كان يلقي ما تخزن في ذاكرته، بتفنن تشخيصي وكأنه يلمع سفينته الأبنوسية بماء الذهب.. لاستدرار الدهشة والمكافأة.. لاحظت ليلى هذا التفنن، واشتمت ما وراءه.. لم تتمالك نفسها من الفرح، حيث بادرت إلى إظهار سفينة الهدية الجديدة، المسماة «الجسر الحالم».. وكان عليها أن تكشف عن

معنى التسمية وسرها ، وذاك ما فعلته.. وفهم كمال، أن عليه هذه المرة، أن يقرأ - لا أن يحفظ - أكبر عدد ممكن من قصص المغامرات البحرية، إن أراد أن تصبح «الجسر الحالم» بين يديه.. وكانت ليلى قد وضعت على المنضدة الكبيرة في الغرفة حيث يوجد، صندوقان مزخرفان موشومان بعلامات مميزة.. أحدهما يمتلئ بكتب القصص المطلوبة، والآخر تزدان داخله السفينة الجديدة، المصنوعة من الألومنيوم اللامع الفضي اللون.. شب الفرح في جوانح الطفل.. ولم تكن معلمته أقل فرحاً منه.. ظلا يرمقان بعضهما، وكأن كل واحد منهما ينتظر من الآخر، ما سيعمله. ولم تتحرك المعلمة من مكانها على الأريكة المريحة، ففهم الطفل أن عليه هو أن يذهب إلى صندوق الكتب، ويفتحه، ويأخذ منه الكتاب الأول - من الأعلى - وذاك ما كانت تبتغيه المعلمة.. فهي تضمر «أسرارها» الآن، ولا تكشف عنها للطفل، كما كانت تفعل من قبل.. إنها تريد منه أن يتعلم عادة محبة الكتب واقتنائها.. والذهاب للبحث عنها في المكتبات.. إن تطلب الحال ذلك..

ليس غريباً، أن ينهي الطفل قراءة كتب الصندوق في أسابيع قليلة.. فلهفته كانت تزداد، كلما سمع من معلمته.. ما يلهب شوقه إلى حيازة السفينة الجديدة.

وكانت مفاجأته، هذا الصباح، عندما أعلمته بأن مفتاح السفينة، هو في الحقيقة آلة تحكم عن بعد، شبيهة بآلة التلفاز - من هذا القبيل - ولما رأت دهشته مشوبة بحيرة صغيرة، صارت تذاكر معه، ما استوعبه وتمثله في القصص المقروءة.

«وكل سفينة قصة، وكل قصة نبحر فيها، إلا القصة التي لا تعجبنا..»، قال الطفل متودداً إلى معلمته.. صارت تضحك، وأدركت ما يغمز إليه كلامه.. فقد شكى، لها، أن بعض القصص ما كان له يقرأها.. فهي مفعمة بالاشتباكات المعقدة! قالت المعلمة: «أتدري ما تقول؟».. إن عين الحقيقة في كلامك.. أنت الآن، لم تعد بحاجة إلى مذاكرة مني.. لن أقطع عليك متعتك.. وإعجابك.. هاك السفينة الجديدة.. ومفتاحها الإليكتروني.. إن كان لي، ما

أقوله لك، فهو أن السفينة القادمة.. ينبغي أن تكون من صنعك... أو على الأقل من اختيارك..

* * * *

بعد أيام، جاء الطفل إلى معلمته، وفي نيته أن يطلعها.. بأنه قرر أن يكبر، لذا فهو لن يبقى أسيراً للعبة السفن.. ثم تراجع عن هذا.. تبجيلاً لما تعلمه.. بيد أنه عزم على أن يهدي القصة التي صنعها من كلمات - يحفظها عن ظهر قلب وكان يعتقد أنه قد نسيها - إلى معلمته، امتناناً وعرفاناً.. «هذه هي السفينة، التي كنت أنتظر منك، سفينة كلمات..» قالت السيدة ليلى.. المعلمة.. وهي تضحك - بدموع - من شدة الفرح والابتهاج..

مـجـدي محـمـود جـعـفـر

من مواليد 1969، *(مصر)، أصدر مجموعة «أصداء رحلة شاب على مشارف الوصول»* 2000.

الثــور

عندما دخل السيد المدير كان لم يزل يُعمل مقشته في أرضية الغرفة.. مثيراً ذرات التراب، ليتأفّف، ويكتم طاقتي أنفه بمنديل، ويستدير قائلاً، وهو يصيح بغضب:

- يا ثور.. لماذا لم تنظف الحجرة مبكراً؟!

التقطت أذناه الكلمة فاستطالتا، ضيق ما بين حاجبيه.. دلّى شفته السفلى الغليظة، وكتم بشفته العليا طاقتي أنفه.. وسّع ما بين شدقيه ما استطاع،

كاشفاً عن نابين أسودين مدببين طويلين، وأسنان بنية عريضة بينها فراغات..

كان المدير قد استدار تماماً هرباً من التراب، معطياً ظهره لباب الغرفة، يُلوِّح للمدرسين بيديه، حاقداً على القوى العاملة، التي تعين المعاقين والمتخلفين تاركة الأصحاء والأذكياء!!

رمى المقشة، ودار حول نفسه، لاح له قفا المدير عريضاً، نظيفاً، غمغم.. ورجع للوراء، وأسند ظهره للحائط، وأغمض عينيه.

ولما وصل إلى أنف السيد المدير عطر «المدرِّسة» الجميلة معلناً عن وصولها، ألقى المنديل الورقي، وصاح في المدرسين بأن يمضوا إلى الطابور..

بلّلت ابتسامتها من بعيد جفاف قلبه.. وما أن اقتربت بقوامها الممشوق، والتقت عيناها السوداوان بعينيه حتى اضطربت أنفاسه!

قالت بدلال ورقة:

- اصطدمت بصيحتك الغاضبة وأنا أدلف من بوابة المدرسة، فسقط قلبي في رجليَّ!!

أشار إلى الغرفة وقال:

- الثور.. هذا الثور الغبي لم يفرغ من تنظيف الغرفة بعد!

التقطت أذناه الكلمة مرة أخرى فاستطالتا أكثر، وتمددتا أكثر، وأصبحتا بحجم طبق هوائي!

كزَّ على أسنانه.. أرخى شفتيه.. غمغم.. هزّ رأسه الكبير يمنة ويسرة، وبينما اقترب المدير من «المدرِّسة» الرقيقة الجميلة، أطلق الثور صرخة اهتزت لها الجدران، وقفز بعنف، وبكل ما أوتي من قوة غرس أسنانه في قفا المدير، وطرحه أرضاً.